نظرات في حركة الاستشراق

الدكتور

عبد الحميد عبد المنعم مدكور
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

دار الثقافة العربية
٣ ش المبتديان - السيدة زينب
القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كلية دار العلوم

تقديراً لدورها المجيد - الذي يزيد على مائة عام - في خدمة علوم العربية والإسلام .

الاستشراق

تمهيد :

حظيت حركة الاستشراق في العقود الأخيرة بقدر كبير من الاهتمام ، الذي تجليٌ في الكتابة عنهم ، وفي التعريف بهم ، كما تجليٌ في الدرسات النقدية التقويمية لجهودهم ودراساتهم ، وقد ظهر في هذا الإطار عدد كبير من الكتب والمقالات والدراسات ، وخُصِّصَت له أعداد خاصة من المجلات التي تهتم بالفكر العربي الإسلامي ، وعُقدت مؤتمرات تتحدث عنه في مجال الحديث عن الغزو الفكري وبناء الشخصية والهوية العربية الإسلامية ، وتحديد موقف العالم الإسلامي من العالم الغربي والحضارة الغربية .

وتكشف هذه الجهود الكثيرة عن أهمية « الاستشراق » ، كما تكشف عن ضرورة دراسته وتقويمه لأسباب كثيرة من بينها ما يلي :

(أ) أن الاستشراق يُعَدُّ ظاهرة ذات تاريخ طويل يرجع لدى بعض الدارسين إلي ألف سنة ، فهو من الناحية الزمنية نتاج امتداد زمني قديم ، ثم هو من ناحية المكانية الجعرافية نو جذور ممتدة في بلاد غربية كثيرة ، بحيث يمكن القول بأن كل الدول الغربية – تقريبا – قد أسهمت فيه ، وان تكن بريطانيا وفرنسا ثم أمريكا في العصر الحديث هي صاحبة الجهد الأكبر فيه .

(ب) أن قسماً كبير من جهود المستشرقين كان ينصب – لأسباب متعددة – على دراسة الشرق الإسلامي ، وجاءت هذه الدراسات – في جملتها

شاملة لدراسات مستفيضة عن الإسلام في جوانبه المختلفة : عقيدةً وشريعة وشخصيات ، وتاريخا وحضارة ، ولغة وأدبا وفنا ، بحيث يمكن القول بأنه يندر أن يوجد مجال من مجالات الدراسة لم يكن لهم إسهام فيه ، ولذلك يصعب على الباحث في هذه المجالات المتعلقة بالإسلام واللغة العربية اغفال هذه الدراسات أو تجاهلها ، وان كان ذلك لا يعني الموافقة التامة أو الدائمة على كل ما جاء فيها من آراء ، أو ما انتهت إليه من نتائج .

وعلى سبيل المثال تُمِدُّنا دائرة المعارف الإسلامية التي أنجزها المستشرقون قبل ما يزيد على نصف قرن بمعلومات كثيرة عن أعلام وفرق وموضوعات وأماكن كثيرة تستند أحيانا إلى مراجع ليست متيسرة لكثير من الباحثين ، كما أن كتابا مثل كتاب بروكلمان « تاريخ الشعوب الإسلامية » يمدنا بمعلومات كثيرة - وان تكن ناقصة أو غير دقيقة أحيانا - عن كثير من المخطوطات العربية الموزعة على كثير من مكتبات العالم ، بحيث يُسَهِّل للباحثين طرق الوصول إليها والإنتفاع بما فيها ، ولا شك أن الباحثين في الدراسات الإسلامية - وفي علم الحديث خاصة - يعرفون فائدة كتاب ڤينسنك « المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي » الذي يعد مرشدا جيدا إلى أماكن ورود الحديث في الكتب والمصادر المتعمدة فيه ، كما يعد وسيلة مناسبة لمعاونة الباحثين في تجميع الأحاديث الواردة في موضوع أو أكثر بحيث تتوفر لهم مادة علمية طيبة تكون عونا لهم على الاستنباط أو الاستدلال ، والاستشهاد ، ومن أسفٍ أن المسلمين لم يقوموا - بعد - بما يحل محل مثل هذه الإنجازات الضخمة التي قام بها المستشرقون ، والتي لا تخلو من مآخذ أو أخطاء ، ولكنها ستظل مراجع ضرورية إلى أن يوجد لدى

الباحثين ما يعادلها أو يغني عنها ، خاصة وأن المستشرقين انفسهم يقومون بتصويب بعض أخطائها أو اكمال بعض موادها كما هو الشأن في دائرة المعارف الإسلامية التي بدأت طبعتها الثانية ١٩٥٠م وهي أوفى وأكمل من طبعتها الأولى .*

(جـ) أن هذه الجهود المنظمة والمتكاملة التي قام - ويقوم - بها المستشرقون في مجال الدراسات الإسلامية والعربية جعلت لهم مكانة كبرى في هذا المجال ، كما جعلت لهم تأثيرا واضحا في آراء الدارسين له ، فمن حيث المكانة يكفي أن نشير إلى ما لاحظه أحد الباحثين من أن الهيآت والمنظمات الدولية المهتمة بالثقافة كاليونسكو تنظر إليهم على أنهم حجة في الإسلاميات ، ولهذا تعهد إليهم بالكتابة عن الإسلام ، بدلاً من أن تعهد بذلك إلى ذوي الإختصاص من المسلمين(١) ومن حيث التأثير يمكن الإشارة - في ايجاز - إلى أن بعض ما جاء من آراء وأفكار لدى بعض الدارسين العرب والمسلمين يعد امتدادا لأفكار سبقهم المستشرقون إليها ، فالهجوم على اللغة العربية - مثلا - والدعوة إلى احلال العامية محلها وُجِدَ - أولا - لدى بعض المستشرقين من أمثال سبيْتا الألماني وولور وولكوكس الإنجليزيان وغيرهم ثم

---

* انتهت الطبعة الأولى عام ١٩٣٨ وكانت تطبع في وقت واحد بثلاث لغات هي الانجليزية والفرنسية والالمانية ، واسهم فيها عدد كبير من المستشرقين من بلاد مختلفة واستمر اصدارها ما يقرب من ثلاثين سنة وقد بدأ اصدار الطبعة الثانية في ١٩٥٠ ميلادية. انظر مجلة « الاستشراق » العدد الثاني - صدر ببغداد ١٩٨٧ ، ص ١١٨ .

(١) انظر د/ محمود حمدى زقزوق : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري كتاب الأمة طبع قطر ط١ / ١٤٠٤ هـ - ص ١١٥ .

ظهر تأثير ذلك في كتابات بعض العرب مثل عيسى اسكندر المعلوف وعبد العزيز فهمي(١) . وما ذهب إليه الشيخ على عبد الرازق من رأي حول الفصل بين الدين الإسلامي والحكم أو السياسة يمكن التماسه لدى بعض المستشرقين ومن بينهم بعض أساتذته الذين تعلم على أيديهم عندما ذهب إلى انجلترا وبقي بها نحو عامين(٢) كما أن بعض الأقوال التي تتعلق بتوثيق السنة ، والتي جاءت لدى الأستاذ أحمد أمين ومحمود أبو رية يمكن التماس أصولها فيما كتبه فريق من المستشرقين على رأسهم المستشرق المجري اليهودي جولد زيهر(٣) كما أن اراء الدكتور طه حسين حول الشعر الجاهلي يمكن التماس

(١) انظر : عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : أجنحة المكر الثالثة طبع دار القلم - دمشق ط٤ / ١٩٨٥ ص ٣٥٣ وما بعدها ، د / محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر طبع مكتبة الآداب ٢ / ٣٤٣ وما بعدها .

(٢) انظر : د / محمد ضياء الدين الريس : الإسلام والخلافة في العصر الحديث ، دار التراث ط ٢ / ١٩٧٧ ص ٢١١ - ٢١٤ والكتاب السابق للدكتور محمد محمد حسين ٢ / ٨١ وما بعدها .

(٣) راجع : د / مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، المكتب الإسلامي ط ٢ / ١٩٧٨ ص ٢٣٦ - ٣١٩ في عرضه ورده لأراء الأستاذ أحمد أمين ثم من ٣٢٠ - ٣٧٣ في رده لأراء أبي رية حول أبي هريرة رضى الله عنه .

أصولها فى حديث المستشرقين عن هذا الشعر(١) وهكذا(٢) .

الرجوع إلى دراسات المستشرقين يكشف لنا هذه « المصادر » أو « المنابع » التي تَعُود إليها آراء من تأثروا بهم من العرب والمسلمين .

(د) إن الاستشراق كان له – على مدى قرون طويلة – دور هام في رسم وبناء صورة الإسلام والشرق لدى الأوروبيين ، وكان له – بذلك – دور في رسم وتحديد مواقف أوروبا ازاء المسلمين ، ولذلك وُصِفَ الاستشراق بأنه يمثل الخلفية الفكرية للصراع الحضاري(٣) أو للعلاقات بين العالم الإسلامي والعالم الغربي سواء أكانت علاقات صراع أم علاقات وفاق .

وليست دراسة الاستشراق – اذن – نوعاً من ملء الفراغ أو الترف الفكري ، بل انها تكاد تكون ضرورة لذوي الاهتمام بالفكر الإسلامي بسبب التأثيرات الهامة للاستشراق في مجال الفكر أو السياسة أو غيرهما من

---

(١) انظر مقالاً للدكتور / يحيى الجبوري بعنوان : المستشرقون والشعر الجاهلي نشر بمجلة الاستشراق ، التي نشرت بالعراق : العدد الأول ١٩٨٧ من ص ٧٦-٩٨ وراجع كذلك : د / عبد الرحمن بدوي : دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي » دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٩ .

(٢) يذكر ادوارد سعيد أن مما يدعوا إلى القلق أن تأثير الاستشراق قد انتشر وامتد إلى الشرق نفسه ، وأن صفحات الكتب والمجلات باللغة العربية وغيرها تمتلئ بتحليلات من الدرجة الثانية للعقل العربي والإسلام وأساطير أخرى يقوم بها كتاب عرب . انظر كتابه : الاستشراق : المعرفة . السلطة . الإنشاء ترجمة كمال أبو ديب طبع مؤسسة الأبحاث العربية بيرت ط١ / ١٩٨١ ص ٣١٨ وهو من أهم الكتب التى رجعنا إليها في هذا البحث .

(٣) د / زقزوق : مرجع سابق ص ١٤ .

المجالات ، وهي تأثيرات تزداد خطورتها طالما كان العالم الإسلامي ضعيفا متأثرا لا مؤثرا ، منفعلاً لا فاعلاً ، متأخراً حتى في دراسة ما يتعلق به ، متقبلا للافكار لا منشئا ومبدعا لها ، ومن ثم فان الدراسة تعطي نوعا من الوعي والفهم ، وتقدم وسيلة من وسائل الحصانة الفكرية ، وسلاحا من أسلحة النقد والتقويم .

أولا : تعريف الاستشراق :

ترتبط الكلمة بالشرق . Orient وقد ذُكِرت عدة تعريفات للمستشرق ، Orientaliste وللاستشراق ، , Orientalisme وجاء بعضها على يد المستشرقين أنفسهم ، وجاء بعضها على يد غيرهم من الدارسين .

١- ومن هذه التعريفات التي قدمها المستشرقون هذا التعريف الذي قدمه المستشرق الألماني رودي بارِتّ وقال فيه عن الاستشراق إنه علم يختص بفقه اللغة خاصة ، وان الكلمة مشتقة من كلمة شرق ، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي(١) .

ويلاحَظُ على هذا التعريف عدة ملاحظات ، منها : أنه يحصر الاستشراق في الدراسات المتعلقة بفقه اللغة خاصة ، وهذه – وان تكن تمثل جانبا مهما من اهتمامات الدراسات الاستشراقية – لاتمثل النشاط الاستشراقى كله ، لأن الاستشراق قد قام بدراسات عن الأديان والعادات

---

(١) انظر رودى بارت : الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ترجمة د / مصطفى ماهر طبع دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧ ص ١١ ، ١٢ .

والنظم والأفكار إلى غير ذلك ، وعلى الرغم من أهمية الدراسات اللغوية فيه فإنه يمكن النظر إليها على انها كانت - في جانب من جوانبها - بمثابة مدخل أو وسيلة لفهم الموضوعات والمسائل الأخرى التي اهتم بها الاستشراق . ومن الملاحظات كذلك أن كلمة الشرق في التعريف كلمة غير ملائمة من الناحية الجغرافية ، فالشرق المقصود هنا ما يُعَدُّ شرقا بالمقارنة إلى أوربا الغربية ، ولكن بعض هذا الشرق ليس داخلا في نطاق الاستشراق ، ونقصد به روسيا وأوربا الشرقية التي تلحق بالغرب من الناحية الحضارية وان تكن شرقا من الناحية الجغرافية ، ثم إن بعض ما يدخل في نطاق الاستشراق لا يعد شرقا لأوربا الغربية وانما يمكن اعتباره جنوبا لها كالشمال الأفريقي مثلا .

وإذا كانت كلمة الشرق غير ملائمة - جغرافياً - فانها كذلك تتصف بأنها عامة جدا ، ويدخل في نطاقها حضارات مختلفة فالصين واليابان والهند وجنوب شرق أسيا بما فيه من دول وجنسيات ، ثم العالم الإسلامي الواقع في أسيا وافريقيا- كل ذلك يعد شرقا ، والكلمة وان كانت متضمنة لذلك كله من حيث مدلولها فان من الأفضل أن تتجه الكلمة إلى نوع من التحديد الذي يُضَيِّق دائرتها لتكون مختصة بالشرق الإسلامي الذي هو موضع اهتمام هذه المنطقة المتميزة بخصائصها وتاريخها عن مناطق الشرق الأخرى . وهذه الملاحظة تنطبق على أكثر التعريفات التي قدمت للاستشراق .

٢- ويقدم مكسيم رودنسون : المستشرق الفرنسي تعريفا اخر مطولا يذكر فيه أن الكلمة قد ظهرت في انجلترا حوالي سنة ١٧٧١ ، وفي فرنسا بعد ذلك بعشرين عاما ، وأدرجت في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام

١٨٣٨ . وأخذت فكرةُ ايجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق تلقى المزيد من التأييد ، وكانت الدراسة في بداية الأمر تتصف بالعمومية وعدم الانحصار في بلد واحد أو شعب واحد أو منطقة واحدة في الشرق . ثم يذكر أن العلماء قد أدركوا أنه لا يمكن القيام بأية دراسة للشرق قبل القيام بدراسة سابقة للنصوص الأصلية ، التي تحتاج بدورها إلى معرفة عميقة باللغات الأصلية ، وأن ذلك يقتضي تحقيق النصوص وترجمتها ووضع المعاجم ، وكتب القواعد وشرح التاريخ إلى غير ذلك من الأعمال(١) .

ويتميز هذا التعريف بأنه يتضمن بعض المعلومات التاريخية الخاصة بالمصطلح ، كما يتضمن بعض الأعمال والمهام التي تدخل في دائرة اهتمام المستشرقين ، والدوافع الأكاديمية التي ألجاتهم إلى هذا الاهتمام ، ولكن التعريف – مع ذلك – لا يخلو من بعض الملاحظات ، ومن أهمها أن نعلم أن المصطلح إذا كان قد تأخر ظهوره إلى هذا الوقت الذي حدده رودنسون فان مضمونه يعد أقدم من ذلك بقرون ، فالاهتمام باللغات الشرقية ووضع القواميس لها وترجمة بعض نصوصها وتحليل آدابها ، ودراسة تاريخها وأديانها ذو تاريخ قديم يرجع في صورته الأكاديمية المنظمة إلى بدايات القرن الرابع عشر الميلادي حيث وافقت الكنيسة على انشاء كراسي لدراسة اللغات الشرقية في بعض الجامعات الأوربية وتم ذلك ما بين ١٣١١ – ١٣١٣م . بل يمكن القول بأن دراسة اللغات الشرقية أسبق من هذا التاريخ أيضا . وربما

(١) انظر : مكسيم رود نسون : الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية مقالة منشورة بكتاب تراث الإسلام سلسلة عالم المعرفة الكويت ط ٢ / ١٩٨٨ ، ١ / ٧٨ .

ظهر المصطلح في الفترة التي حددها رودنسون ، ولكن الوظائف التي تندرج تحته أسبق من ذلك بكثير .

٣- ثم يأتي ادوارد سعيد في كتابه الاستشراق ، وهو من أهم ما ظهر عن الاستشراق في العقود الأخيرة ليذكر أن للاستشراق معاني ثلاثة :

المعنى **الأول** منها أكاديمي ، وبمقتضى هذا التعريف الذي يصفه بأنه اكثر تقبلا يكون المستشرق هو كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه ، في أي مجال من المجالات دون تخصيص بمجال معين كفقة اللغة مثلا فالدارس لعلم الإنسان أو علم الإجتماع أو علم التاريخ أو اللغة أو غيرها مما ينصب على الشرق يعد مستشرقا ، ودراسته تعد استشراقاً ، ولا يخفي ادوارد سعيد أن مصطلح الدراسات الشرقية أو الإقليمية يعد أكثر قبولا عند أصحابه من مصطلح استشراق بسبب غموضه من جهة ، وبسبب علاقته بالاستعمار من جهة ثانية . المعنى **الثاني** أعم من المعنى السابق لأنه لا ينحصر في الدراسات الجامعية الأكاديمية المنضبطة ، بل يتسع لكل فكر أو ابداع أو وصف للشرق أيا كانت وسيلته ، بحثا أو رواية أو شعرا أو أدبا للرحلات أو رأيا فلسفيا أو تنظيرا سياسياً أو اقتصادياً يتعلق بالشرق .

والاستشراق بهذا المعني أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق والغرب ، بحيث يكون هذا التمييز مُنْطَلَقاً لما يقدم عن الشرق من نظريات وملاحم وروايات وأوصاف اجتماعية الخ . ومن الواضح أن مجال الاستشراق بهذا المعنى الثاني يعد أكثر عمومية ، وأقل انضباطا من المعنى الأول ، ولكنه مع ذلك يقدم صورة غربية عن الشرق ، صالحة لكي يفيد

منها الاستشراق بالمعنى الأكاديمي الأول .

أما المعنى **الثالث** فهو أكثر تعريفات إدوارد سعيد إثارة للجدل بل إثارة للهجوم عليه ، لأنه ينظر إلى الاستشراق بوصفه أسلوباً غربياً للسيطرة على الشرق والسيادة عليه ، واعادة بنائه على النحو الذي يتفق مع العقلية الغربية ، والإسهام في تكوين فكرة الشرق عن نفسه بما يتفق مع الفكرة الغربية عنه وان كانت مختلفة مع واقع الشرق نفسه . ويربط الكاتب بين الاستشراق بهذا العنى وبين اتجاه الغرب إلى استعمار الشرق ، ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر تقريبا ، وينطبق ذلك على الاستشراق البريطاني الفرنسي خاصة(١) .

ويتميز هذا التعريف الثالث بالجرأة والمصارحة ، كما أنه يتضمن معنى أيديولوجيا يربط بين الاستشراق والإستعمار ، ولكنه – من الناحية الموضوعية الخالصة - لا ينطبق علي كل جهود المستشرقين الذين ظهروا في بلاد كثيرة لم يكن لها صلة بالاستعمار كالاستشراق الألماني أو السويدي أو الفنلندي أو اليوغسلافي الخ ولعله كان يحس بذلك فجعله يكاد ينحصر في الاستشراق الفرنسي والبريطاني ، ويلحق بهما الاستشراق الأمريكي الذي سار على خطاهما وورث تقاليدهما ، وقد كان لهذا الاستشراق صلة بالاستعمار سوف نشير إليها فيما بعد .

---

(١) ادوارد سعيد : مرجع سبق ذكره ٣٨ ، ٣٩ .

٤- ثم تأتي موسوعة لاروس الفرنسية لتعرف المستشرق بأنه « العالم المتضلع من معرفة الشرق ولغاته وآدابه »[١] .

٥- ويمكن بناء على التأمل في التعريفات السابقة وما قدم من ملاحظات عليها أن نعرف المستشرق بأنه « باحث غربي غير مسلم يكتب عن الشرق الإسلامي » .

أما الاستشراق فهو البحث الأكاديمي الذي يكتبه غربيون غير مسلمين عن الشرق الإسلامي .

ويلاحظ أن هذا التعريف قد راعي عدة أمور فهو - أولا - يحصر الاستشراق في مجال الدراسات العلمية الأكاديمية ، ويخرج بذلك كثيرا من صور الاهتمام بالشرق ، وقد برزت في أشكال متعددة كالرواية والشعر ، وأدب الرحلات ونحو ذلك ، وهذه تمثل « مادة علمية » أو مادة خاما يمكن الإستعانة بها في اجراء بحوث علمية منهجية عن الشرق لدى الباحثين المحترفين .

وهو - ثانيا - يصف الباحث بأنه غربي ، فيخرج بذلك الباحثين الذين ينتسبون إلى الشرق الإسلامي من وصف المستشرقين ، وقد كان هذا من المآخذ التي وجهت إلى نجيب العقيقي الذي أدرج كثيرين من اللبنانيين

---

(١) نقلا عن : د / أنور عبد الملك : الاستشراق في أزمة ، نشر لأول مرة عام ١٩٦٣ وأعيد نشره مترجماً في مجلة الفكر العربي عدد ٣١ السنة الخامسة - بيروت ١٩٨٣ . ص ٧١ ، ٧٢ .

والشرقيين ضمن المستشرقين ، حتى إنه جعل نفسه منهم ، وذكر اسمه بينهم[1] على أن يراعي في وصف الغرب مضمون هذا الوصف من الناحية الحضارية ، وبمقتضى هذا يوصف الروس بأنهم مستشرقون لانهم يمثلون قسما من الحضارة الغربية ، حتى وان كانوا شرقيين بالنسبة لأوربا .

ويلاحظ في التعريف - كذلك - أنه وصف الباحث الغربي بأن يكون غير مسلم ، لأنه إذا أسلم فان وصف الإسلام يعلو على كل وصف سواه ، ومن ثَمَّ يصبح انتماؤه للإسلام فوق انتمائه الغربي الحضاري أو الجغرافي ، ثم إنه ينشئ علاقة روحية لا تنقصم بهذا الشرق الذي يتجه إليه في صلاته ويتجه إليه في حجه عندما يتجه إلى الكعبة أو عندما يذهب إليها ، ثم إنه - بمقتضي إسلامه - يحس مشاعر الأخوة مع اخوانه المؤمنين في كل مكان من العالم ، وفي مقدمتهم هؤلاء الذين يعيشون في الشرق ، وقد اهتدى إلى الإسلام كثير من الباحثين والمفكرين الغربيين ومنهم المفكر الفرنسي اتيين دينيه الذي تسمى باسم ناصر الدين ومن كتبه : أشعة خاصة بنور الإسلام كما ألف كتابا بالإشتراك مع عالم جزائري عن سيرة

---

(١) انظر : نجيب العقيقي : المستشرقون دار المعارف ط ٤ / ١٩٨١ حـ ٣ / ٣١٧ - ٣٢٨ ينطبق هذا النقد أيضاً على حديثه عن المستشرقين الرهبان حيث أدرج من بينهم رهبانا من أصل شرقي من مصر وسوريا والعراق وغيرها انظر مثلاً المستشرقون ٣/ ٢٧٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، وقد لاحظ هذه الملاحظة من قبل د / زقزوق انظر كتابه : الاستشراق ٧١ .

الرسول ﷺ* والباحث الفرنسي رينيه جينو(١) والباحث النمساوي ليوبولدفايس الذي تسمى باسم : محمد آسد ، وكتب كتبا قيمة عن الإسلام ومنها الإسلام على مفترق الطرق ، والطريق إلى مكة ، ومنهم مريم جميلة التي كتبت الإسلام إزاء الغرب والإسلام والتجدد(٢) ، وعبد الكريم جرمانوس وموريس بوكاي(٣) وجارودي وكثيرون غيرهم ، وهؤلاء بأن يوصفوا بأنهم مسلمون أولى من أن يوصفوا بأنهم مستشرقون .

ثانيا : تاريخ الاستشراق :

يختلف الدارسون في تحديد الفترة التاريخية التي ظهرت فيها البدايات الأولي للاستشراق .

فبعضهم يوغل في القدم حتى ليرجع هذه النشأة إلى عصر ظهور الإسلام ويشير بعض أصحاب هذا الرأى إلى ماوقع في عهد النبي ﷺ من

---

* كلاهما مترجم الى اللغة العربية ، فالاول ترجمه الاستاذ راشد رستم ونشرته سلسلة الثقافة الاسلامية العدد ١٧ والثاني ترجمة د. عبد الحليم محمود ود. محمد عبد الحليم محمود ، وبه مقدمة تحكي حياة المؤلف ٧ – ٤٥ نشر الشركة العربية للطباعة والنشر . وله كتب اخرى لم تترجم .

(١) راجع ما كتبه الدكتور / عبد الحليم محمود عنه ضمن البحوث التي كتبها ونشرها مع تحقيقه لكتاب المنقذ من الضلال للغزالي . دار الكتب الحديثة ط ٧ / ١٩٧٢ ص ٢٥١ وما بعدها إلى ٢٧١ ثم ٢٩٠ وما بعدها ، ٤٥٩ .

(٢) انظر : أبو الحسن الندوي : الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين مؤسسة الرسالة – بيروت ط٢ / ١٩٨٣ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٣) انظر : أجنحة المكر الثلاثة : مرجع سبق ذكره ١٣١ ، ١٣٢ .

جدل بين أهل الكتاب والمسلمين ، كما يشيرون إلى جهود فريق من أهل الكتاب الذين لم يحمدوا للإسلام أنه أعطاهم الحق في البقاء على أديانهم وممارسة شعائرهم ، بل إنهم عملوا على إخراج المسلمين من دينهم أو تشكيكهم فيه على الأقل عن طريق التحريف وتلبيس الحق بالباطل واثارة الشبهات حول العقيدة ، وإثارة الأسئلة المعضلة التي كانوا يتوجهون بها مباشرة الرسول أو عن طريق المشركين ، ويرى أصحاب هذا الرأي أن الاستشراق بما له من غايات وأهداف عقائدية « ليس في جوهره ظاهرة جديدة في تاريخ العلاقات بين الإسلام وغير المسلمين ، وانما هو امتداد لظاهرة قديمة ترجع في بدايتها التاريخية إلى بداية الإسلام نفسه وان لم تكن تسمى بهذا الاسم حينذاك »(١) على أن بعض اصحاب هذا الرأي الموغل في القدم يرجع نشأته إلى الخصومة بين المسلمين والروم في غزوة مؤتة(٢) .

ويمكن القول بأن هذا الاتجاه لا ينطبق عليه المصطلح الفني للاستشراق كما ظهر به من بعد ، حيث إن القائمين بالجدل - آنذاك - لم يكونوا غربيين بل كانوا شرقيين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية ، وما وقع من الجدل عندئذ يدخل في نطاق الجدل الذي ثار بين أهل الكتاب والمسلمين حول الدين ، وهو جدل كان من أسباب نشأة علم الكلام عند المسلمين .

---

(١) د / أحمد عبد الحميد غراب : رؤية إسلامية للاستشراق ص ١٩ / ٢٠ دار الأصالة - الرياض ط ١ / ١٤٠٨ / ١٩٨٨ ص ١٩ وانظر ١٣ - ٢٠ .

(٢) أشار إلى هذا الرأي د / قاسم السامرائي في كتابه : الاستشراق بين الموضوعية والإفتعالية ص ١٩ - دار الرفاعي - الرياض ط ١ / ١٩٨٣ .

والاستشراقُ – إذن – كان أحدث تاريخا ، وإن كان قسم من نشاطه – بعد نشأته – يتفق في الأهداف والغايات مع غايات وأهداف الجدل القديم كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

ويرجع بعض الدارسين مثل نجيب العقيقى هذه النشأة إلى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الميلاديين ، ويشيرون بصفة خاصة إلى البابا سلفستر الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣م) الذي أمر بانشاء مدرستين عربيتين احداهما بروما عاصمة البابوية والثانية في فرنسا(١) .

ويمكن الإشارة هنا إلى أن هذه المدارس أو الجهود التي تمت في عهد هذا البابا كانت تتجه – بصورة أساسية – إلى ترجمة الفكر الإسلامي المكتوب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوربية ، بغية الإفادة مما تضمنه هذا الفكر من أفكار وعلوم سبق إليها المسلمون ، أو حافظت عليها لغتهم العربية بعد ترجمة التراث الأجنبي إليها في أوائل الإسلام ، وخاصة في عهد الدولة العباسية . فالترجمة – اذن – كانت هي الهدف الأول من وراء انشاء هذه المدارس ولم يكن للاستشراق بمعناه الاصطلاحي المحدد نصيب ذو شأن من وراء هذه الجهود .

وإذا كانت هذه الآراء ترجع بنشأة الاستشراق إلى فترة مبكرة وان كانت متفاوتة – فان الأراء التي ترجع نشأة الاستشراق إلى القرن الثامن عشر – مثل رأي رودنسون الذي سبق أن أوردناه عند الحديث عن تعريف الاستشراق – تتجاوز قرونا كثيرة كان للاستشراق فيها وجود منظم ومؤثر

---

(١) انظر نجيب العقيقي : المستشرقون ١ / ١١٠ .

وفعال .

ولعل أكثر الآراء مراعاة لواقع الاستشراق ذلك الرأي الذي يرجع هذه النشأة إلى القرن الثاني عشر وما بعده حيث وُجدت شخصيات كان لها إسهام قوي أدى إلى دفع هذه الظاهرة إلى مجال الحياة والتأثير .

ويأتي في البداية من هؤلاء بطرس الموقر* (ت ١١٥٦م) وهو راهب فرنسي ، عين رئيسا لدير كلوني** ، ولقد ذهب إلى الأندلس ليستزيد من علومها (١١٤١ – ١١٤٣) وبعد عودته منها قام بنشاط محموم في تأليف الكتب للرد على علماء الجدل من المسلمين واليهود(١) ، وكان ينظر إلى الإسلام على أنه هرطقة نصرانية ، وأعلن – تبريرا لانشغاله بمهاجمة المسلمين – أنه « إذا لم يكن بالإمكان تتصير المسلمين به ، فمن حق العالِم على الأقل أن يساند اخوانه الضعفاء في الكنيسة ، الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة »(٢) وكان هذا دافعا لهذا النشاط العلمي الذي اندفع إليه بسبب

---

* يوصف بأنه الموقر أو المبجل أو المحترم على حسب ترجمة الصفة التي أضفيت عليه ، وقد كان يلقب بـ LE VÉNERABLE

** كان لهذا الدير نشاط محموم في التحريض علي محاربة الاسلام في الشرق وفي الاندلس الاسلامية ، وقد تمكن رهبانه من تكوين جيش استعاد طليطلة من المسلمين ، كما كان رهبانه يرافقون الجيوش في الاندلس لتحطيم الشعائر العربية الاسلامية واحلال شعائر روما محلها . انظر : د. قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية ٢١ – ٢٣ .

(١) العقيقى ١ / ١١٢ .

(٢) د . زقزوق ٢٤ ، ٢٥ وانظر رود نسون : تراث الإسلام ١ / ٣٨ .

وظيفته الدينية وبسبب رغباته الشخصية في أن يسلح الكنيسة كما يقول رودنسون – ضد أخطار الاضطراب الفكري التي كانت تحيط بها ، كما أنه رغب في أن تكون الأسلحة الفكرية التي تستخدم في نطاق الجدل الديني مع غير النصارى قوية ومؤثرة ، ومن أجل هذا كوّن فريقا من المترجمين ، الذين تمكنوا تحت اشرافه من انجاز ترجمة للقرآن لأول مرة إلى اللاتينية(١) .

وجاء بعد بطرس الموقر شخصية أخرى لا تقل عنه حمية ولا نشاطا ، وتلك هي شخصية روجر بيكون (ت ١٢٩٤) الذي اشتهر بجهوده في ارساء قواعد المنهج التجريبي ، ومقاومة المنطق القياسي الذي وضعه ارسطو ، ولكن جانبا آخر – لعله أهم – كان يتجه إلى ارساء الاستشراق وبنائه .

وتمثل هذا الدور في تلك الوثيقة التي عرضها على البابا وتحدث فيها عن وضع المسيحية في العالم ، وعن مقترحاته للاصلاح ، والمنهج الذي ينبغي اتباعه لتنفيذ تلك المقترحات .

وقد أوضح أن عدد المسيحيين قليل بالنسبة لغيرهم من أتباع الأديان والملل الأخرى ، وان السبب في ذلك يرجع إلى تقصير المسيحيين في التبشير بدينهم ، وقد أشار أن الحروب العسكرية ليست هي الوسيلة لتحقيق هذه الغاية بل انها عديمة الجدوى ، قليلة النجاح ، ولذلك ينبغي اللجوء إلى الدعوة

(١) انظر رودي بارت : مرجع سبق ذكره ص٩ ومقالة رود نسون سابقة الذكر ١ / ٣٩ وتوصف هذه الترجمة بأنها شكلت المعلم البارز والأساسي في مجال الدراسات الإسلامية بأوروبا الغربية وأنها قدمت الركيزة الأساسية والمأمونة للبدء بدراسات حقيقية حول الإسلام انظر : ريتشارد سوذرن : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى : : الفصل الثاني : ترجمة د / رضوان السيد ، نشر بمجلة الفكر العربي السنة الخامسة عدد ٣٢ / ١٩٨٣ انظر ص ٢٥ .

السّلمية التي لن يتحقق لها النجاح هي الأخرى إلا إذا تحققت لها ثلاث شروط :

- معرفة لغات الشعوب التي يراد التبشير بينها .
- معرفة عقائد الشعوب الذين يراد التبشير بينهم .
- معرفة الحجج المؤسسة على المعرفة ، والتي يقصد بها دعوة غير المسيحيين إلى المسيحية الكاثوليكية .

وقد انتهى من عرضه للمشكلات التي تواجه المسيحية إلى « ضرورة انشاء علم جديد » يهتم بتحقيق هذه الشروط الثلاثة ، وكان مما اقترحه أن يلجأ هذا العلم إلى ضرورة استخدام الفلسفة الدينية أو اللاهوتية في مواجهة أعداء المسيحية وخاصة الإسلام ، الذي ذكر أن مواجهته هي أصعب المواجهات ، وقد بدأ هو فأورد ضد الإسلام فئات مختلفة من الحجج والبراهين التي يراها كفيلة بمواجهته ونقضه ، وكان العمل الذي قام به بيكون ضخما ، اذ بلغ أكثر من ألف صفحة ، وهو عمل اجتمعت فيه كما يقول - سوذرن - الغيرة والتسرع والتفاؤلية ، وتميز بالتنظيم[1] .

ويمكن القول بأن هذا العلم الجديد الذي دعا روجر بيكون إلى انشائه هو علم الاستشراق . وقد كان ممزوجا - منذ المراحل الأولى لنشأته بالتبشير كما يقول المستشرق الألماني بارت « وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر (القرن الثاني عشر وما بعده) وفي القرون التالية هو التبشير ، وهو اقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام ، واجتذابهم إلى الدين المسيحي»[2] .

(١) سوذرن : المرجع السابق ٣٢ - ٣٦ .

(٢) بارت : مرجع سابق ص ٩ .

أما الشخصية الثالثة التي كانت ذات أثر حاسم في تكامل الاستشراق فهي شخصية ريموند ليل الأسباني (ت ١٣١٦) الذي كان أكثر معاصريه حمية ونشاطا لنصرة المسيحية ، وكانت أمنيته الكبرى هي ادخال المسلمين فيها[1] .

ومن أجل تحقيق هذه الأمنية قام بنشاط محموم وزيارات لا تكاد تنقطع طوال حياته ، التي زادت علي الثمانين عاما ، تنقّل فيها ما بين أوربا وشمال أفريقيا ، ومن المحتمل أنه زار مصر وفلسطين وتركيا ، وكتب كتبا عدة كان بعضها منصبا على مجادلة المسلمين ومحاورتهم ، كما قام بالوعظ المباشر في شمال افريقيا وخاصة في تونس ، وعندما كان في مونبليه بفرنسا في عام ١٣٠٥م كتب رسالة إلى البابا يقترح عليه خطة لاسترداد فلسطين التى أخفقت الحروب الصليبية فى الاستيلاء عليها . كما يقترح عليه احتلال افريقيا الشمالية[2] . وكان من آماله الكبرى أن يتحول التتار الذين أسقطوا دولة الخلافة الإسلامية في بغداد إلى المسيحية وأن يعود المنشقون عن الكنيسة إليها ، وعندئذ « فان جميع المسلمين يمكن أن يُقْضَي عليهم بسهولة ، ولكن أشد ما يثير الخوف هو أن يتحول التتار إلى الإسلام ، إما باختيارهم ،

(١) Voir : Graef, Hilda : Histoire de la my stique, traduit de l'anglais par Guy Maxililen et Edith Marguerite . Édition du Seuil 1972 paris, p. 177 .

(٢) Ibid : PP 177, 178

وإما باغراء المسلمين لهم ، عندئذ سيكون العالم المسيحي كله في خطر عظيم »(١) .

وإذا كان هذا النشاط منصبا – في جملته على التبشير دعوة وتأليفا وتحريضا فان إسهامه في الاستشراق كان متصلا بالتبشير أيضا ، شأنه في ذلك شأن روجر بيكون وغيره ، واتفاقا مع طابع العصر الذي كان يجري فيه هذا النشاط وهو عصر الحروب الصليبية فى المشرق ، وعصر زحف المسيحية الأوربية على الأندلس والاستيلاء عليها من المسلمين . وكان أهم ما قدمه – في مجال الاستشراق – أنه في عام ١٣١١ قدم إلى مجمع ڤينا اقتراحا كلل بالنجاح يقضي بادخال الدراسات الشرقية في عدد من الجامعات الأوربية(٢) ، وكان من بين اللغات التي ووفق على انشاء كرسي لها بهذه الجامعات* اللغة العربية ، التي عين لها أستاذان – كغيرها من اللغات الشرقية – في كل جامعة ، وكان من مهامهم ترجمة نصوص عربية وكلدانية للرد على منتقدي الدين(٣) وظل ريموند يواصل نشاطه التبشيري إلى مات بتونس ١٣١٦ مرجوما بالحجارة بسبب تطاوله وهجومه على الرسول ﷺ(٤) ومنذ صدور قرار مجمع فينا (١٣١٢) أصبح إسهام الكنيسة في دعم الاستشراق

---

(١) نقلاً عن : د / غراب : مرجع سابق ص ٢٤ وكذا الاستشراق ص ٩٣ ، د / السامرائي .

(٢) المرجع المذكور قبل الهامش السابق ص ١٧٨ .

* في باريس وبولونيا والبلاط البابوي ثم جامعة سلامانكا باسبانيا .

(٣) العقيقي : مرجع سابق ١ / ١٢٢ .

(٤) المرجع المذكور بهامش (٢) هنا ص ١٧٨ .

إسهاماً رسمياً منظماً ، حيث ظل هذا القرار كما يقول العقيقي أصلاً من أصول القانون الكنسي أكثر من خمسمائة عام(١) أي إلى مشارف العصر الحديث .

وشاركت الجامعات الأوربية في هذا الشأن وخاصة منذ أواسط القرن التاسع عشر ، حيث أصبح لكل جامعة رئيسية في أوربا منهج متكامل في أحد فروع الدراسات الشرقية ، وكان ذلك يعني الدعم المادي في صوره المختلفة ، والحماية المعنوية للدراسات التي كانت تنشر دون عقبات(٢) .

ولم تتأخر الدول الأوربية عن القيام بدورها في الدعم والمعاونة وكان لفرنسا وانجلترا - بصفة خاصة - القسط الأكبر . وظل الحال على هذا النحو حتى نهاية الحرب العالمية الثانية(٣) وقد دخلت أمريكا إلى الميدان وأصبح لها إسهامها الدي لا يجاري . ولكن اسم الاستشراق بدأ يتوارى إلى حدٍّ ما ، وأخذ لقب جديد يحاول أن يحل محله وهو لقب الخبير الإقليمي الذي يقوم بدوره ضمن نظام متكامل يشترك فيه خبراء السياسة ومستشاورها فيما يسمى علوم رسم السياسة(٤) ، وكان هذا التطور في الشكل وفي الوظيفة متمشيا مع حركة الاستقلال الوطني التي حققتها شعوب الشرق منذ مؤتمر باندونج ١٩٥٥ ، فقد وجد الاستشراق نفسه أمام شرق جديد مستقل ، وكان

(١) العقيقي مرجع سابق ١ / ١٢٢ .

(٢) ادوارد سعيد مرجع سابق ٢٠٣ .

(٣) السابق ٣٩ ، ٤٠ .

(٤) السابق ١٣٠ ، ١٣١ .

أمام الاستشراق - عندئذ - بديلان كما يقول ادوارد سعيد : إما أن يستمر على منهجه ونشاطه القديم كَأَنَّ شيئا لم يحدث ، وإما يحوِّر ويعدل منهجه ليتلاءم مع الأوضاع الجديدة .[1]

كذلك أضفي النشاط القديم للاستشراق ، ظلالاً من الشك والريبة بل والكراهية لدى فئات كثيرة بين هذه الشعوب المستقلة ، خاصة وأن الاستشراق كان له نشاط متصل بالتبشير والاستعمار ، ولذلك وجدنا بعضهم مثل الأستاذ الفرنسى ميكيل يقول عندما سُئِل عن علاقة الاستشراق باستعمار الوطن العربى « أنا أجهل معنى تعبير الاستشراق ... أنا لست مستشرقا ، وأرفض هذه الكُنْية ، أنا عروبي ، سحرني الأدب العربي ، فانكببت عليه بحثا ودراسة »[2] بل إن نفراً كبيراً من المستشرقين قد أحسوا ما أحاط بهذا اللفظ من كراهية وغموض وعدم رضا ، ولذلك اتجه بعضهم إلى التخلي عنها ، وتم اضفاء تعبير رسمي على هذا التخلي في المؤتمر الدولي التاسع والعشرين ، الذي انعقد في باريس في صيف عام ١٩٧٣ بمناسبة الذكرى المائة لعقد المؤتمر الأول للمستشرقين ، وأصبح بعضهم يفضل اطلاق اسم مستعرب بدلا من اللفظ القديم[3] ولكن هذا اللفظ لم يستقر بعد ، وما يزال لِلَّفظ القديم أنصاره وإن كانت تزاحمه تسميات أخرى ، ولكنه يسعى إلى تحوير نشاطه ، وتعديل مساره ، ليزيل عن كاهلة أثقال عهده القديم .

---

(١) السابق ١٢٨ .

(٢) من حوار جاء معه ، نشرته مجلة الاستشراق التي صدرت ببغداد عام ١٩٨٧ عدد ٢ - ص ١٩٤ .

(٣) مقتبس من مساجلة قامت بين برنارد لويس وادوارد سعيد جاءت بالمرجع السابق انظر ص ١١٧ .

ثالثا : أهداف الاستشراق :

الاستشراق حركة ذات تاريخ طويل ، وقد أسهم في نشاطه - على امتداد القرون - أشخاص ومؤسسات ودول ، ومن المتوقع - اذن - أن تكون له أهداف كثيرة متعددة ، ويمكن تقسيم هذه الأهداف - إجمالاً - إلى قسمين : علمية ، وغير علمية* .

١- فأما الأهداف العلمية فتنقسم إلى أنواع متعددة منها :

(أ) الوصول إلى فهم أفضل للغرب وحضارته عن طريق فهم الشرق الذي شهد مبعث الديانة المسيحية . وقد انتقلت منه - بعد ذلك - إلى أوربا ، وأصبحت أصلا من أصول حضارتها ، وبخاصة في العصور الوسطى الأوربية ، التي كان للكنيسة وما تمثله من دين مكانه عظمي فيها . ولما كانت المسيحية تعتمد على التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام ، فان فهم المسيحية كان يقتضي فهم التوراة أيضا ، ويشمل ذلك المعرفة بلغتها وتشريعاتها وشروحها وتاريخها ، ومن ثم كان العلم بأصول الحضارة الغربية يقتضي بذل جهد كبير في مجال فهم الأصول الدينية ذات الأصول الشرقية .

وقد سعي إلى تحقيق هذا الهدف عدد كبير من المستشرقين ، الذين

---

* لا يعني هذا الوصف انها خالية من العلم ، ولكن المقصود به أن العلم ليس مقصودا لذاته ، كما هو شأن القسم الأول الذي يغلب عليه الاهتمام بالعلم لذاته ، اما الثاني فان العلم ليس هو المقصود الأصلي وإنما المقصود من ورائه أهداف أخرى . وينبغي ملاحظة أن هذه التقسيم ليس حاسما ومن الممكن أن يكون لشيء واحد هدفان ينتميان الى هذين القسمين معا .

خصصوا جهودا كبيرة لمعرفة اللغات التي نزلت بها الكتب المقدسة ، ومن هؤلاء سلفستر دوساسي الذي كان من أهم أهدافه فهم الشرق مهما كان ثرائه خِلْواً من الروح النقدية فيما يرى ، وهو لا يفعل ذلك - إذن - لرغبة في اكتساب شيء من الشرق الذي لا يرقي عنده لاكتساب شيء منه لان الحضارة الأوربية بلغت مرحلة أسمى من الحضارة تجعلها في غير حاجة إلى الشرق ، ولكنه يفعل ذلك لتحقيق غاية « معرفية » تضع امام مواطنيه تجربة غير مألوفة « بل ما هو أكثر نفعا من ذلك (أنها تقدم) نمطا من الأدب ، قادرا على أن يعيننا على فهم الشعر الآلهي بحق ! الذي ألَّفه العبرانيون »(١) .

وكان فهم أصول الحضارة الغربية يقتضي - كذلك - فهم أصولها العربية التي انتقلت - بالترجمة - إلى اللغة اللاتينية في حركة تعد من اكبر حركات الترجمة في التاريخ ، وقد ترتب عليها حركة علمية تجريبية أسفرت عن تحول عن المنطق الأرسطي الذي كان سائدا في أوربا ، بل أنه كان قد أُضْفِي عليه لون من القداسة ، كما ترتب عليها أن نشأت بأوربا حركة فلسفية تنتمي إلى ابن سينا وابن رشد ، وقد تعرضت اراء ابن رشد لنوع من التحريف فيما يتعلق بارائه عن أمور متصلة بالعقيدة كقدم العالم وخلود النفس ، وقد كان التاكد من اراء ابن رشد والرد عليها يقتضي الرجوع إليها في لغتها الأصلية ، كما يقتضي الرجوع إلى تيارات أخرى في الفكر الإسلامي كعلم الكلام الذي كان وسيلة للرد على تلك الآراء المحرَّفة لابن رشد* .

---

(١) ادوارد سعيد مرجع سابق ١٤٩ ، ١٥٠ .

* يمكن الرجوع هنا الى كتب كثيرة من أهمها كتاب رينان : ابن رشد والرشدية ترجمة عادل زعيتر ، والى كتاب المرحوم الدكتور محمود قاسم : ابن رشد المفتري عليه ، والاستشراق بين الموضوعية والانفعالية للدكتور/ قاسم السامرائي ص ٤٤ ، ٤٥ وصفحات أخرى .

(ب) فهم الشرق ذاته بوصفه غاية لاوسيلة ; لان اتصال أوربا بالشرق عن طريق التجارة والاستعمار كشف لها عن عراقته التاريخية ، وبدأ ذلك في مجال الدراسات اللغوية التي أحس علماؤها بسبق الشرق سواء في ذلك الهند التي تحولت على يد الباحثين من الإنجليز والألمان إلى منبعٍ وأصل لكل شيء في الحضارة ، أو مصر التي انتهى الفرنسيون - بعد نابليون وشامبليون الذي حل رُموز اللغة المصرية القديمة - إلى أن كل شيء قد بدأ فيها .

وأدت هذه الحماسة للشرق إلى « ضرورة الشرق فكريا للباحث الغربي في اللغات والثقافات والأديان » .(١)

وكان العالم الإسلامي يحتل مكانة هامة في هذا الشرق لأسباب متعددة منها قربُهُ الشديد من أوربا ، وعلاقته المتوترة بها منذ اتسع - قديما - على حسابها ، وكونه خطرا قائما أو محتملا ، وكانت هذه الأسباب كلها تدعو إلى الاهتمام به لفهم مصادر قوته ، وعناصر تماسكه .

وكانت بعض الجهود الاستشراقية تحاول فهم أصول ومصادر الحضارة الإسلامية ذاتها ، وكانت تبحث في ثناياها عن الروافد الأجنبية خاصة الهللينية ، التي انتقلت - بالترجمة - إلى اللغة العربية ، وازدهرت في هذا المجال نظرية التأثير والتأثر التي حاولت أن ترجع كل عناصر الفكر عند المسلمين إلى مصادر أجنبية ، بل حاولت - بتأثير الحُمّى التي أصابت بعض الباحثين - أن ترجع الإسلام نفسه إلى مصادر أجنبية . ومن الملاحظ أن

---

(١) ادوارد سعيد : ١٥٦ ، ١٥٧

الفهم هنا يشتبك مع محاولات التشويه ، وهي محاولات غير علمية سوف يأتي مجال الحديث عنها بعد قليل .

ومن أجل تحقيق هذا الفهم لكل شيء يتعلق بالإسلام وفكره وحضارته جاء الاهتمام باللغة والأدب والكتب والمخطوطات ، وشغل هذا الاهتمام حيزا كبيرا من جهود من المستشرقين ، وقد انجزوا في هذا المجال إنجازات كثيرة ، تعريفا بالمخطوطات وأماكن وجودها ، ووصفا لها ، وتحقيقا لكثير منها وقد زخر كتاب مثل كتاب « المستشرقون » لنجيب العقيقي بذكر كثير من هذه الأعمال ، التي تملأ عناوينها فقط العشرات والعشرات من الصفحات .

٢- وأما الأهداف غير العلمية فانها تنقسم إلى قسمين : أحدهما يتعلق بالدين ، وثانيهما يتعلق بالسياسة والاستعمار .

(أ) فأما الهدف الديني فهو من أهم الأهداف التي قام الاستشراق لتحقيقها ، ويرتبط ذلك - في الأصل - بظروف نشأة الاستشراق التي ظلت تُلْقِي ظلالها عليه على مدى تاريخه الطويل ، ولم تكن تلك الظروف غائبة عنه في أكثر ما قام به من نشاط .

وقد نشأ الاستشراق في عصر الحروب الصليبية ، ووصل إلى درجة من الاستقرار والتنظيم في أواخرها وفي أعقابها ، وكان من أهداف الحروب الصليبية الهيمنةُ على العالم الإسلامي ، والقضاءُ على أخطاره الواقعة والمحتملة ، وتحقيق الهيمنة الأوربية على الشرق . وسعت أوربا سعيا حثيثا لتحقيق هذه الأهداف طوال قرنين من الزمان ، جندت فيها جيوشا جرارة ، وقامت بحملات كثيفة ، ودفعت نفقات باهظة ، ولكنها في النهاية ارتدت على

أعقابها . وإذا كانت الحروب الصليبية قد أخفقت في تحقيق أغراضها فانها - على عكس ما كان منتظراً منها - أتاحت الفرصة لأوربا أن تَعْرف الشرق الإسلامي عن كثب ، وان ترى فيه حضارة مزدهرة ، وعلما متفوقا ، وكانت هذه الصورة تتفق مع الصورة الأخرى التي كانت الترجة في الأندلس وصقلية تقدمها للفكر العربي الإسلامي والحضارة الإسلامية . وسرت في الأوصال رعدة وخوف من أن تُعْجَبَ أوروبا بالإسلام . ويعبِّر مكسيم رودنسون عن ذلك بقوله « لقد كان المسلمون خطرا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلته ، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب ، وأنموذجا حضاريا يمتاز بتنافسه ، وبحركته الإبداعية المتسارعة ، وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب ، إذ أنه - وفي مواجهة تقدم هذا النموذج .. عبَّر مثقفو الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام ، وبدا ذلك لهم وكأنه خطر على المسيحية » .(١)

وكان من أهم الخطوات التي اتخذتها الكنيسة في أوروبا لمواجهة مشاعر الاندهاش ، والخوف من الإعجاب بالإسلام أن تعمل على تشويه صورة هذا الإسلام ، وهذا ما يشير إليه رودنسون أيضا حيث يقول إن هذه المشاعر نحو الإسلام قد أدت إلى نتيجتين هامتين : أولاهما السعي نحو وحدة أيديولوجية أوروبية متكاملة في مواجهة فكر الإسلام وحضارته ،

---

(١) عن مقال د / علي الشامي : الحركة الصليبية وأثرها في الاستشراق الغربي نشر بمجلة الفكر العربي السنة الخامسة - عدد ٣١ بيروت ١٩٨٣ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

وأخراهما أن الكنيسة الأوروبية قد عملت من أجل تثبيت الإيمان المسيحي على تشويه المنتجات الحضارية للإسلام وما يصل منها إلى مسامع الغربيين .(١)

وهكذا كان الإحساس بتفوق الإسلام وحضارته على أوروبا وعلى حضارتها القديمة التي تأسست تحت ظلال روما كما يقول - أيضا - ادوارد سعيد ، كان ذلك أمرا يدفعهم إلى الشعور بالمرارة(٢) والخوف ، كما كان يدفعهم إلى البحث عن خطط بديلة تحقق أهداف الحروب الصليبية دون حروب عسكرية ، بحيث تنجح في النهاية في تشوية هذا الإسلام ، وصرف الناس عنه ، كما تعمل - في صمت وهدوء - على تحقيق انتصار على هذا الإسلام .

وكان ذلك كله يعني أن الأهداف العلمية التي تحدثنا عنها فيما سبق لم تكن هي الأهداف الوحيدة التي أسست وطورت الاستشراق بل كان الهدف الديني عاملاً قوياً إن لم يكن أقوى العوامل في قيام الاستشراق ، ونشاطه ، ومن هنا يستطيع « كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الهدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق . وقد صاحَبَ الاستشراقَ طوال مراحل تاريخه ، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية ..»(٣)

---

(١) السابق : الموضع نفسه .

(٢) انظر : ادوارد سعيد مرجع سابق ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) السابق ٢٦٥ .

وقد ادت هذه المشاعر الدفينة – التي ولّدتها احقاب طويلة من العلاقات المتوترة ، والصراعات المحتدمة التي وصلت إلى حد الحروب التي أريقت فيها أنهار من الدماء – نقول أدي هذا كله إلى التأثير الواضح في حركة الاستشراق ، بحيث يمكن القول بأن الأغراض العلمية قد تراجعت كثيرا تحت وطأة الصرعات الطويلة التي ألقت بثقلها على الجهود العلمية ، ويعبر عن هذا المعنى أوضح تعبير قول محمد أسد « إن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شيء شرا ثقافيا . لقد نشأ تسميم العقل الأوروبي عما شوهه قادة الغربيين من تعاليم الإسلام ، ومُثُله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب » .(١)

وظهر هذا الشر الثقافي كما يقول محمد أسد أو هذا العمل الذي كان يعد نوعا من الكفاح ضد الإسلام والعروبة كما يقول المستشرق الألماني يوهان فوك(٢) في مجالات كثيرة وجوانب متعددة من أعمال المستشرقين :

*ففي حديثهم عن القرآن انكروا أنه وحي الهي ونظروا إليه على أنه كتاب بشري تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه بما تعلمه من اليهود والنصارى ، وبما استبقاه من تقاليد الوثنية العربية ، وبما عرفه من وثنية

---

(١) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ترجمة د / عمر فروخ دار العلم للملايين – بيروت ط ٩ / ١٩٧٧ ص٥٨ انظر كذلك ص ٦٠.

(٢) انظر د / مصطفى ماهر في تقديمه لكتاب الدراسات الإسلامية في ألمانيا مرجع سابق : ص ٤ .

فارس ويظهر هذا في حديث جولد زيهر وغيره[1] .

ويوصف القرآن عند بعضهم بأنه مليء بالتناقض لان النبي لم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف ، فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض أزاله بوحي جديد ينسخ القديم ، وممن قال هذا ول ديورانت وجولد زيهر وغيرهما[2] وليم يبرأ من ذلك توماس كارلايل الذي نظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه مثال للبطل في صورة نبي ، ولكنه كان – في الوقت نفسه – ينظر إليه على أنه مؤلف القرآن ثم يصف القران بأنه « خليط مهلهل مشوش ، ممل خام مستغلق ، تكرار لا نهاية له .. مستغلق .. لا يطاق »*[3]

---

(١) انظر : العقيدة والشريعة في الإسلام ترجمة د / محمد يوسف موسى ، د/ علي حسن عبدالقادر ، عبد العزيز عبد الحق نشر دار الكتب الحديثة مصر ، ومكتبة المثنى ببغداد ط ٢ دون تاريخ ص ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤١ ومواطن أخرى وسنورد دراسة مفصلة لآرائه فيما بعد.

ويقول المستشرق جب مثل هذا انظر مثلاً : علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي ترجمة عادل عوا طبع عويدات بيروت باريس ط١ / ١٩٧٧ ص ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ وما بعدها .

(٢) جولد زيهر المرجع السابق ، ولديورانت قصة الحضارة ترجمة محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٣ / ١٩٧٤ مجلد ٤ جـ ٢ ص ٤٢ .

(٣) ادوارد سعيد : مرجع سابق ١٦٩ ، ود / قاسم السامرائي مرجع سابق ١٨ وقد ترجم الأستاذ محمد السباعي أقوال كارلايل على نحو آخر حيث يقول عنه « ان الأوربي يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرأه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة .. انظر الأبطال : ترجمة محمد السباعي طبع دار الهلال ١٩٧٨ ، ٨٥ ، ٨٦ .

*حذفنا بعض الصفات التي ذكرها لشدتها وقسوتها .

ثم يوصف القرآن بأنه لا يحمل منهجا عقليا ، ولا يتضمن نسقا منهجيا بل إنه على العكس من ذلك رفض كل بناء عقلي وأن الذي أسس المنهج العقلي في الإسلام هم علماء الكلام ، كما أنه يخلو من الجوانب الروحية ، التي لم تنشأ في الإسلام إلا على أيدي الصوفية ، وأن الذي أسس الجانب التشريعي في الإسلام ، متأثرين في ذلك بالقانون الروماني ، هم الفقهاء[1] ثم يوصف الإسلام – والقرآن خاصة – بأنه مضاد للتقدم ، وبأنه يعوق النظر العقلي الحر[2] وزيادة على هذا كله يوصف القرآن بأنه لم يحرر ولم يدون إلا بعد نزوله بكثير ، وأنه لا يُعْلَم تماما (في زعمهم) هل أُدْخِل شيء من الحديث في القرآن أو لا »[3].

ولم ينج الحديث الشريف من سيل اخر من الأحكام التي تتعلق بمصادره ، وبأنه كان من وضع الفقهاء الذين أرادوا أن يؤيدوا اجتهاداتهم الفقهية ، وبأنه تأخر تدوينه إلى القرن الثالث الهجري مما سمح – في رأيهم

---

(١) جب : علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي : مرجع سابق ١٢٧ ، ١٢٨ وروم لاندو : الإسلام والعرب ترجمة د / عمر فروخ ، دار العلم للملايين ط ٣ / ١٩٨٣ ص ٢١٠ – ٢١٢ .

(٢) انظر الشيخ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٣ / ١٩٦٦م ، ص٥ – ٩ .

(٣) انظر تعليقات شكيب أرسلان علي : حاضر العالم الإسلامي ٩٧/١ وهو من تأليف لوثروب ستودارد ، ترجمة عادل نويهض دار الفكر ط ٤ / ١٩٧٣ .

– بغلبة الوضع عليه . ويظهر مثل هذه الآراء لدى جولد زيهر وول ديورانت واميل درمنجم وكثيرين غيرهم (١) .

وإذا كان الإسلام يرجع إلى هذين المصدرين فان ذلك يعني هدمه بهدم هذين المصدرين ، ثم يعني افتقاده إلى الروح العلمية ، وأنه يقوم على إستعارة لا ضابط لها ولا قيود عليها من الحضارات السابقة عليه كاليهودية والمسيحية واليونانية والرومانية والفارسية ، بل من الوثنيات العربية ، وهكذا يتحول الإسلام إلى ثقافة تقوم على الاقتباس الكامل أو السرقة من الثقافات السابقة (٢) .

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد حظي بسيل جرار من الأوصاف والاتهامات والتطاول الفاحش على مقامه الكريم ، والتحامل الواضح الذي لا يدفع إليه منهج صحيح ، ولا موضوعية نزيهة ، ومن الغريب أن تلك الصورة تمتد إلى عهد بعيد فى الماضى ، وانها إستمرت إلى عهد قريب ، وأنها تعرضت لقدر لامثيل له من التشويه والإساءة .

وقد كانت الصورة التى تقدم إلى أوروبا عنه فى القرن الثانى عشر

---

(١) انظر مثلاً : العقيدة والشريعة ٣١ ، ٥١ وانظر مناقشة د / مصطفى السباعي لآرائه في : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : مرجع سابق ١٨٩ - ٢٠٦ ثم ٢١٦ - ٢٣٥ وانظر قصة الحضارة مجلد ٤ ص٢ ص ١٤٨ وحاضر العالم الإسلمي ١ / ٤٤ ، والإسلام والعرب : ١٩٠ ، ١٩١ ومراجع أخرى .

(٢) انظر ادوارد سعيد : ٢٩٦ ، ٣٠٣ .

الميلادى أنه ساحر هدم الكنيسة فى الشرق وفى أفريقيا عن طريق السحر والخديعة ، وأنه قد ضمن نجاحه وانتشار دينه عن طريق اباحة الاتصالات الجنسية . وكان من بقايا هذه الصورة أن المسلمين يعبدون الاوثان وأن محمداً – فى نظرهم – كان هو الصنم الرئيسى !! ويشاركه الهة أخرى وثنية مثل ابولووترفاجانت(١) .

ويقدم الشاعر دانتى الإيطالى ١٣٢١ م صورة شديدة القسوة للرسول – صلى الله عليه وسلم – حيث وضعه فى المرتبة الثامنة من مراتب الجحيم ، وهى قاع جهنم ، ثم يتحدث عن العقاب الأبدى الذى يلقاه الرسول (وحاشاه) على نحو يثير الإشمئزاز والتقزز*(٢) .

ثم يأتى ڤولتير (١٧٧٤ م) ليصور الرسول فى شكل خائن منافق ، متابعاً فى ذلك التقاليد القديمة(٣) وكان من جملة ما قيل عن الرسول ﷺ :

– أنه تعلم القرآن من بحيرا الراهب ، واتفق معه على تضليل العرب .

– أنه هو الذى اختلق الوحى والقرآن .

---

(١) انظر رودنسون : تراث الإسلام ١ / ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) ادوارد سعيد : الإستشراق : مرجع سابق : ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ .

* اعرضنا عن ذكر تفصيلات هذه الصورة ، وما ذكره من العقاب بسبب القسوة البالغة والتهجم الفاحش على الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) انظر مقالة يوهان فوك عن : رايسكه-المستشرقون الألمان جمع وتقديم ومشاركة د / صلاح الدين المنجد – دار الكتاب الجديد – بيروت ط١ / ١٩٧٨ جـ ٣٦/١ .

– أنه كان كاردينالاً كاثوليكياً ، وكان يطمح أن يفوز بمقعد البابا ، فلما لم ينتخبه الكرادلة غضب وذهب إلى مكة وادعى النبوة لدين جديد مضاد لكنيسة روما .

– أنه كان مصاباً بالصرع ومس الشيطان ! وأنه كان قد درب حمامة أو أن معلماً خبيثاً له هو الذى دربها على التقاط الحب من أذنه ، وكان يدَّعى أن هذه الحمامة هى الروح القدس الذى يوحى إليه بالقرآن .

– أنه كان شهوانيا وأن زواجه من مطلقة مولاه زيد هو أشبه بالزنا[1] وقد كتب شبرنجر (ت ١٨٩٣ م) كتاباً عن حياة محمد ﷺ وتعاليمه انتهز كل فرصة ليلفت النظر – من وجهة نظره – الى نواحى الضعف الإنسانية فى محمد ! واعتبر أن مهمة أى كاتب لسيرته هى أن يستخرج مثالب شخصيته من بين المديح الذى يحيط به[2] ومن الواضح أن الموضوعية تتهاوى تحت أقدام هذه الغاية الموضوعة سلفاً . كما تتهاوى تحت مطارق الأحكام المسبقة عن الإسلام ومصادره ، ويعترف بعض المستشرقين بذلك ، حيث نرى – مثلاً – رودى بارت يقول « حقيقة إن العلماء ورجال اللاهوت فى العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى فى تعرفهم على الإسلام .. ولكن كل محاولة

---

(١) انظر د / قاسم السامرائي : مرجع سابق ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ وحاضر العالم الإسلامي ١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٤ – ٩٦ ، وانظر د / عرفان عبد الحميد . المستشرقون والإسلام : المكتب الإسلامى ط ٣ / ١٩٨٣ ص ٦ – ٨ ، ١٥ ، ١٦ ومواضع أخرى ، وكذا د / هشام جعيط : أوروبا والرسلام ، تجد عرضاً له ضمن مجلة الفكر العربي السنة الخامسة عدد / ٣٢ مرجع سابق ٢٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر بارت : الدراسات العربية والإسلامية ... مرجع سابق ٢٣ .

لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعى ، نوعاً ما ، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل فى أن هذا الدين المعادى للمسيحية (= الإسلام) لا يمكن أن يكون فيه خير »(١) .

* وإذا كانت هذه التصورات والأفكار التى ظهرت لدى رجال دين وشعراء وفلاسفة ومفكرين قد اتجهت هذه الوجهة القاسية البعيدة عن الموضوعية العلمية فيما يتعلق بالقرآن والسنة ورسول الإسلام فإن الأمر كان – كذلك – حتى فيما يتعلق باللغة العربية ودراستها وتدريسها ، يقول جيوم بوستل (ت ١٥٨١ م) أول من شغل كرسى اللغة العربية فى الكوليج دى فرانس فى باريس عن اللغة العربية « انها تفيد بوصفها لغة عالمية فى التعامل مع المغاربة والمصريين والفرس والأتراك والتتار والهنود ، وتحتوى على ادب ثرى ، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل اعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتاب المقدس »(٢) .

وكان من أهداف أول جالس على كرسى اللغة العربية فى كمبردج (١٦٣٦م) أن يعد مشروعاً لتفنيد القرآن(٣) كما كان من أهداف انشاء الكرسى نفسه « تجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة ، والدعوة إلى الديانة

---

(١) السابق ٩ ، ١٠ .

(٢) د / زقزوق الاستشراق ... مرجع سابق ص ٣٠ .

(٣) د / الطيباوي : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية ترجمة د / محمد فتحي عثمان ملحق بكتاب د / البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي مكتبة وهبة ط٨ / ١٩٧٥ ص ٥٢٠ .

المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون فى الظلمات »[1] .

ويذكر المستشرق الألمانى يوهان فوك أن أهداف علماء الكنيسة الذين كانوا أول من اعتنى باللغة العربية لم تكن أهدافاً علمية ، بل إنهم أرادوا الرد على الإسلام واجتذاب المسلمين إلى المسيحية « أى أن غرضهم كان بعيداً عن تحقيق عادل ودراسة علمية »[2] .

ومن الواضح من هذه النصوص وما يشابهها أن الاستشراق لم يقف عند حدود العلم التى أشرنا إليها من قبل ، ولكنه كان نشاطاً له أغراض دينية واضحة ، أى أن الاستشراق والتبشير كانا مختلطين أو متكاملين ، وأن هذا الاختلاط أو التكامل قد أوقعهما فى البعد عن موضوعية العلم ونزاهته ، وفتح الباب لهذا السيل المتدفق من الطعن والافتراء على كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين . وربما تحررت كثير من البحوث الحديثة ، وخاصة فى جوانبها اللغوية من ملاحظة هذا الهدف الدينى ، وسعت نحو تعميق الجانب العلمى لما له من أثر فى الفهم والاستنتاج والمقارنة ، ولعل من أسباب ذلك ضعف الانتماء الدينى عموماً لدى بعض العلماء والباحثين الأوربيين فى العصر الحديث تحت وطأة الاتجاه المادى والنظريات التطورية فى علوم الحياة والنفس والاقتصاد وغيرها ، ولعل من أسباب ذلك أيضاً أن هذه البحوث التى يقوم بها المستشرقون لم تعد محجوبة عن الأعين ، بل إنها صارت معلومة فى لغاتها الأصلية ، أو فى اللغة العربية وغيرها بعد ترجمتها ، ومن ثم يمكن

---

(١) د / زقزوق : مرجع سابق ص ٣٠ .

(٢) مقالة يوهان فوك : مرجع سبق ذكره جـ ١ ص ١٥ .

مناقشتها والرد على أصحابها ، ولكن ذلك لا يعنى أن الهدف الدينى قد اختفى تماماً بل إنه كما يرى بعض الباحثين لا يزال يعمل من وراء ستار بوعى أو بغير وعى(١) وذلك لان الخوف من الإسلام ويقظته التى تقع فجأة أو بغتة أمر كامن فى الوجدان الأوروبى ، وربما يعبر عن ذلك أفضل تعبير قول برنارد لويس « إن وصول الإسلام الى مركز القوة أمر له خطورته .. إن الإسلام دين قوة .. فإذا لم يُنْتَبه إلى خطر الإسلام فإن أمتى السبت والأحد : (أى اليهود والنصارى) سيعانون من نتائج وخيمة »(٢) .

* وإذا كانت الجهود السابقة المتعلقة بالإسلام ومصادره ورسوله قد قصد بها تشويه صورة الإسلام فى أوروبا ، وتسميم العقلية الأوروبية نحوه فان تأثيرات هذه الصورة كانت تمتد إلى الشرق وإلى المسلمين أيضاً ، ذلك أن بحوثاً كثيرة كانت تجرى حول الإسلام وتاريخه وقيمه ، وكانت تلك البحوث مشربة بتلك الروح العدائية نحو الإسلام ، ولذلك أثارت عدداً كبيراً من الشبهات حوله ، ومن هذه الشبهات ما يتعلق ببعض الأمور التشريعية كالجهاد والرق ، ومعاملة المرأة ، وبعضها كان يتعلق بموقف الإسلام من التطور ، وعجزه عن مسايرة التقدم والحضارة ، حتى يحدثوا فى نفوس المسلمين « يأساً من مستقبل الإسلام ، ومقتاً على حاضره ، وسوءَ ظن بماضيه ، حتى

---

(١) د / زقزوق : مرجع سابق ٧٢ ، ٧٣ ، ومحمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ص ٦٠ وانظر الاستشراق ادوارد سعيد ص٢٦٥ .

(٢) نقلاً عن : فؤاد فرسوني : بين الدراسات الأقليمية والدراسات الاستشراقية مقال نشر بمجلة عالم الكتب – الرياض مجلد ٥ عدد ١ / ١٤٠٤ / ١٩٨٤ ص ٥١ .

يتركز نشاطهم وحماسهم فى رفع هتاف تطوير الدين ، واصلاح القانون الإسلامى »[1] .

وحتى يترسخ فى وجدان المسلم أنه لا يستطيع أن يعيش عيشة عصرية راقية وهو متمسك بالشريعة ، وأن الإسلام إذا كان صالحاً لمواجهة حالة البداوة التى وقعت فى الماضى ، فإنه غير قادر على مواجهة العصر الحاضر بتعقيداته وظروفه المركبة ، ومن ثم فإن على المسلم أن يختار بين الدين والحضارة ، وما يؤدى إليه احدهما من جمود ، وما يؤدى إليه الآخر من رقى وتطور ومدنية .

ولا شك أن انقطاع المسلمين – فترة طويلة – عن ممارسة الاجتهاد ، وتراكم عديد من الظواهر والمشكلات التى تنتظر الحل الإسلامى لها كان من العوامل التى تستغلها هذه البحوث لزرع اليأس والقنوط ، ودفع المسلمين إلى التخلى – ولو جزئياً – عن الإسلام ، وكانت هذه الآثار والنتائج تلقى بظلالها الثقيلة على مفكرى الإسلام الذين انشغلوا بالبحث عن سبل النهضة الإسلامية ، واقامة المشروع الحضارى الإسلامى .

ب) إذا كانت الدوافع الدينية تحتل مكاناً هاماً – ظاهراً أو كامناً – فى النشاط الاستشراقى ، وإذا كانت هذه الدوافع مستمرة بشكل أو بآخر ، فإن الدافع السياسى الذى يربط بين الاستشراق والاستعمار لا يقل عن هذا الجانب الدينى أهمية .

---

(١) أبو الحسن الندوي : الإسلاميات – مرجع سابق ص ١٦ وانظر حاضر العالم الإسلامي ٣ /٣٧٢ .

وقد جاءت كتابات ادوارد سعيد لتلقى ضوءاً باهراً على هذا الجانب ، فى صراحة قاطعة وجرأة نادرة ، وكان مما ذكره فى هذا الصدد أن اثبات هذه العلاقة بين الإستعمار والاستشراق ليس قولاً مثيراً لكثير من الجدل[١] ومن الأسباب – عنده – أن هناك ارتباطاً بين النزعات الشخصية ، الذاتية وبين المعارف المستخلصة من العلوم الإنسانية ، فالباحث فى هذه العلوم لا يستطيع – إلا بصعوبة بالغة – أن يتحرر من ارائه السابقة ، وأفكاره الثابتة وأهدافه المرجوة ، وهذه جميعاً تحكم نظرته إلى موضوع بحثه ، وإذا كان هذا صحيحاً « فلابد أن يكون صحيحاً أيضاً أنه – بالنسبة للأوروبى أو الأمريكى الذى يدرس الشرق – لا يمكن أن يكون ثمة تبرؤ من الظروف الرئيسية لواقعه هو ، وهى أنه (المستشرق) يواجه الشرق بوصفه أوروبياً أو أمريكياً أولا ، ثم فرداً ثانياً » ومعنى ذلك أنه يمتلك وعياً – مهما كان غائماً – بأنه ينتمى الى قوة ذات مصالح محددة فى الشرق[٢] وأنه « فى اللحظة الحاسمة التى كان فيها على المستشرق أن يقرر ما إذا كان ولاؤه وتعاطفه مع الشرق أو مع الغرب الفاتح اختار المستشرق الغرب ، دائماً منذ نابليون وحتى اللحظة الحاضرة »[٣] وكان من أسباب ذلك أيضاً أنه كان يعبر عن موقف أوروبا من الإسلام ، وهو موقف مشحون بتراث من العداوة والصراع والمخاوف ، وقد أفصح عن نفسه بصور متعددة ، وصلت إلى ذروتها فى الحروب المستمرة

(١) ادوارد سعيد : مرجع سابق ١٤٥ .

(٢) السابق ٤٦ .

(٣) السابق ١٠٧ وانظر كذلك ٢١٤ ، ٢١٥ .

على مدى أحقاب طويلة ، كما أفصح عن نفسه فى جانب مهم من دراسات المستشرقين ، قاموا بها لخدمة أهداف بلادهم ، ومن ثم « فقد حمل الاستشراق الحديث فى ذاته معالم الخوف الأوروبى العظيم من الإسلام ، وقد زادت ذلك حدة التحديات السياسية فى مرحلة ما بين الحربين العالميتين »(١) .

ولم يكن ادوارد سعيد هو – وحده – الذى تحدث عن العلاقة بين الاستشراق والاستعمار بل تحدث عنها غيره أيضاً ومن بينهم المستشرق الألمانى المعاصر ستفان فيلد الذى يقول « والأقبح من ذلك (كذا) أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين . وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة »(٢) ويقول الريس هارمان مثل ذلك أيضاً(٣) ويعترف الأستاذ نجيب العقيقى بهذا الدور الذى قام به نفر من المستشرقين منذ وقت طويل ، ولكنه يقول إن الذين قاموا بهذا الدور أقلية(٤) .

وسواء أكان هؤلاء قلة أم كثرة فإن لهم نشاطاً غير منكور ، وأن هذا

(١) السابق ٢٥٨ وقد سبقت الإشارة إلى هذا المعنى من قبل عند الحديث عن الهدف الديني انظر مثلاً فيما سبق ص ٣١ وكذا ص ٤١ هامش ٢ .

(٢) د / زقزوق : مرجع سابق ٤٤ وانظر ص ٤٧ أيضاً .

(٣) نقلاً عن : عباس صالح طاشكندي : الإستشراق ودوره في توثيق وتحقيق التراث مجلة عالم الكتب مرجع سابق ص ٧ .

(٤) المستشرقون ٣ / ١٠٤٦ ط ٤ .

النشاط – فى جملته – قد عاون الاستعمار فى مراحلة المختلفة ، فمثل دور الاستكشاف ، والمعاونة فى التخطيط فى المرحلة السابقة على الإستعمار ، كما مثل دوراً كبيراً فى النصح والإمداد بالمعلومات ، تثبيتاً لوجوده ، وتمكيناً له من مواجهة الصعاب . وكان له – إلى جانب ذلك – دور فى تبرير وجوده من الناحية الأخلاقية والفلسفية ، ويمكن أن نقدم نموذجاً لكل وظيفة من الوظائف مع التنبية – سلفاً – إلى أنها قد تتداخل ، ولكننا سنفرد كلاً منها بمثال بحسب الطابع الغالب عليها .

١ – فأما المرحلة الأولى فيمكن أن نصفها بأنها مرحلة التمهيد والتخطيط للاستعمار ، وفيها تستعين الدول بكل الأفكار والخبرات والمعلومات التى يمدها بها المستشرقون ، لكى تحدد أهدافها ، وتتعرف على المشكلات التى قد تواجهها ، وترسم الخطط لمواجهة تلك المشكلات المتوقعة ، كما تستعين بما لديها من معلومات على إعداد القوى التى تحتاج إليها فى تنفيذ خططها وسياساتها . وقد قام بعض المستشرقين بدور فى هذا الصدد ، يمكن اعتباره طليعة ورائداً سارت على اثره ، وبتوجيه منه ، جيوش كثيرة إلى الشرق ، مستهدية بما انتهى إليه هؤلاء الرواد من بحوث متعلقة بالتاريخ والعادات ، والتحليل الاجتماعى والنفسى وكل ما يمكن أن يفيد فى رسم البرامج والسياسات .

وتقدم لنا الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت (١٧٩٨ – ١٨٠١ م) مثالاً جيداً ، فقد استعان بأفكار المستشرقين ، وأدرج معه كثيراً من المختصين ، وكان على علم مفصل بما كتبه الرحالة الفرنسيون خاصة إلى

الشرق ، وعلى وجه أخص ما كتبه كونت دوفولنى الذى نشر كتابه رحلة الى مصر وسورية ١٧٨٧ ، ونظرات فى الحرب الراهنة للاتراك ١٧٨٨ ، وقد حدد نابليون – مستعيناً بما قرأه – الصعوبات التى يمكن أن تواجه أى حملة فرنسية إلى الشرق(١) .

كما حدد نابليون ملامح سياسته العامة التى يمكن له – من خلالها أن يتسلل الى عقول المصريين ، ويخفف من مقاومتهم المتوقعة له بوصفه غازياً مستعمراً ، جاء معتدياً على دينهم وبلادهم – وكان من تلك الملامح ما يلى :

– أنه كان يعرف أهمية الدين بصفة عامة ، وكان يعرف أن المصريين شديدو التمسك بدينهم الإسلامى الذى يأبى عليهم الخضوع لمن لا يدينون بدينهم ، ولذلك اهتم بدراسة الإسلام ، وكان كلما دنا من الساحل الأفريقى استغرق فى دراسته وفكر فى الطريقة التى قد يفيد بها منه عملياً »(٢) .

وقد حانت الفرصة لذلك حين أصدر مرسوماً موجهاً إلى المصريين ، ضمنه أنه يحترم الإسلام ونبيه ، والقرآن ، وأن الفرنسيين أصدقاء مخلصون للمسلمين ، وأنهم جاءوا ليخلصوهم من مظالم المماليك وعسفهم ، وأن من أدلة ذلك أنهم حاربوا إيطاليا ، وخربوا كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، وفعلوا مثل ذلك فى جزيرة مالطة ، وأنهم

---

(١) ادوارد سعيد : مرجع سابق ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) ج . كستوفر هيرولد : بونابرت في مصر ترجمة فؤاد اندراوس مراجعة الدكتور / محمد أنيس – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ ص ٧٥ – ٧٧ .

حلفاء مخلصون للسلطان العثماني وأعداء لاعدائه أى المماليك[1] .

– لم ينس نابليون أن يستغل عقيدة القضاء والقدر ليوهم المصريين أنه قد جاء تنفيذاً لقدر الهى مسلط على المماليك ، وأن الله قد قدر انهاء دولة المماليك على يديه[2] وقد كرر هذا المعنى فى منشور العفو الذى أصدره بمصر عقب قيام ثورة القاهرة الأولى (١٧٩٨) وفيه يقول « ايها العلماء والأشراف . أعْلِمُوا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ... ولا ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه .. وأن الله قدر فى الأزل أنى أجىء من المغرب إلى ارض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الأمر الذى أُمِرْتُ به ، ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه » ثم يحذر بأنه سيأتى يوم يظهر فيه للناس « أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم الهى لا يرد ، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى »[3] .

– وكانت مجالسه التي يجتمع فيه بالعلماء والمشايخ لا تخلو من محاولات كسب ثقتهم بالمناقشة في القرآن ، وطلبه منهم تفسير الآيات

---

(١) السابق : ٩٦ – ٩٨ .

(٢) السابق ٩٧ .

(٣) السابق ٢٧٤ ، ٢٧٥ وانظر كذلك ٢٥٢ .

الهامة ، وإبدائه الإعجاب بالرسول ﷺ * ومحاولاته اقناع العلماء بأن الرسول خصه بعنايته (١) .

– كان من محاولاته التقرب إلى المصرين أنه ارتدى الملابس التركية التي يلبس مثلها العلماء .(٢)

– ولم يكن نابليون صادقا فيما قاله في منشوراته ، وقد اعترف نابليون نفسه ، وهو يعقب على منشوره الأول إلى المصرين أنه قطعة من الدجل ، ولكنه دجل من أعلى طراز . وقال لشخص آخر من أصدقائه الحميمين « على الإنسان أنه يصطنع الدجل في هذه الدنيا ولأنه السبيل الوحيد إلى النجاح » (٣) . وكيف لا ينهج منهج الجدل وهو يقول عن أحلامه التي سعى بكل وسيلة إلى تحقيقها « ... ورأيتني أُؤَسس دينا ، وأزحف على آسيا ، وأنا أمتطي فيلا ، وعلى رأسي عمامة ، وفي يدي القرآن الجديد ، الذي كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتي » (٤)

ولم تكن هذه السياسة التي اختطها نابليون من وحي خياله وحده بل

* عندما ادعى بونابرت هذا فاجأه الشيخ الشرقاوي من كبار علماء الازهر بانه ما دام كذلك فعليه أن يسلم صراحة ، ولكن نابليون راوغ ، ولكنه رأى مع ذلك أن من حسن السياسة ان يتملق امال المسلمين انظر كتاب : بونابرت في مصر ، كرستوفر هيرولد ترجمة فؤاد اندراوس ٢٥٢ – ٢٥٥ .

(١) السابق ٢٥٢ .

(٢) السابق ٢١٠ .

(٣) السابق ٩٨ ، ٩٩ وانظر وصفها بالنفاق وتملق العواطف ١٩٦ .

(٤) السابق ٩ وانظر ٩٦ .

شاركه في وضعها سياسيون قدامى ، وممن شاركه في رسمها البارون دتوت الذي ألف كتابا ١٧٨٩ باسم مذكرات عن الترك والتتار ، وكان قد عمل مستشارا عسكريا للجيش التركي ، ثم كلفته وزارة الخارجية الفرنسية باستطلاع الأوضاع في مصر ، ودراسة امكان الاستيلاء عليها ، وقد قدم تقريراً يفيد إمكان ذلك ، واقترح إذاعة منشور يطمئن الأهالي إلى أن الفرنسيين أصدقاء لهم ، وحلفاء ، وأنهم راغبون في تحرير مصر من المماليك وقد انتفع نابليون بذلك انتفاعا واضحا (١) .

وكان ممن استعان بهم نابليون المستشرق فنتورا والمستشرق مارسيل ، وكذا سولكوفسكي ، الذي كان ضابطا ولكنه كان خبيرا بشئون شرقي البحر المتوسط ،مجيدا للكلام بالعربية(٢) ويصف الجبرتي المستشرقَ الأول هنا بأنه ظل اربعين سنة يتجول في بلاد الإسلام قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسية وأنه كان لبيباً متبحرا يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطلياني والفرنساوي(٣) .

---

(١) السابق ١٢ – ١٧ .

(٢) انظر ٤١ ، ٢١٠ ، ٢٢٨ .

(٣) تاريخ الجبرتي : ٦٨/٣ نقلاً عن : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا للشيخ محمود شاكر طبع دار الهلال ١٩٨٧ ص ١٥٧ ، ١٨٦ ويوصف بأنه مستشرق لامع في المرجع السابق ص ٤٧ وانظر كذلك ٥٢ حيث يذكر المؤلف أن وجهة الحملة لم تكن معروفة لكن مؤشرات عديدة كان من بينها البحث عن المستشرقين كانت توضح أنها متجهة نحو الشرق .

وقد اعتمد نابليون على هؤلاء وأمثالهم مثل مونج ورجاله(١) في رسم سياسته للتعزيز بالمصريين واخضاعهم ، كما أعطى نائبه كليبر تعليمات مشددة بأن يدير أمور مصر بعد أن يغادرها هو من خلال المستشرقين والقادة الدينيين المسلمين الذين كان باستطاعتهم أن يستمليوهم إلى جانبهم(٢) .

ولم ينته دور هؤلاء في مصر بما قدموه من معلومات ، وما اقترحوه من سياسات ، ولكن كان للفريق العلمي الذي صحبه نابليون مع الحملة جهد آخر علمي ظهرت آثاره في اقامة المجمع العلمي المصري ، وفي كتاب وصف مصر الذي يتكون من أربعة وعشرين مجلدا عشرة منها من النصوص ، وأربعة عشر مجلدا من اللوحات »(٣) .

٢- كان لبعض المستشرقين - زيادة على ما سبق - جهود في تثبيت الاستعمار ، ومعاونته على توطيد أركانه وإستمرار وجوده في البلاد التي فتحها ، وذلك بامداد الدول المستعمِرة بالمعلومات والنصائح ونتائج الملاحظات والدراسات ، وقد كان بعض هؤلاء يعمل مستشارا بوزارة الخارجية أو وزارة المستعمرات ، ويمكن أن نذكر هنا أسماد دي ساسي وماسينيون ، وجب ، ومرجليوث ، ونيكلسون وجويدي ونللينو

---

(١) نابليون في مصر : مرجع سابق ٤٥ .

(٢) ادوارد سعيد : مرجع سابق ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٣) انظر كتاب بونابرت في مصر في التعريف بالمجمع العلمي وأعماله ٢٢٦ وما بعدها إلى ٢٤٣ وانظر تقييم ادوارد سعيد لكتاب وصف مصر في كتابه السابق ١١٠ - ١١٣ .

وبرناردلويس وماكس ميلر ، وروث بيندكت وغيرهم (١) .

ويعترف بعض المستشرقين بأن الدول وأصحاب المصالح كانوا يمارسون ضغوطا « لدعم النتائج التي تؤدي إلى احتواء العالم الإسلامي ، والتشبث به ، باعتباره منطقة اضطراب حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه » (٢) .

ولعل ابرز مثال لهذا النوع من التعاون يتمثل في المستشرق الهولندي سنوك هور خرونيه (ت ١٩٣٦) الذي يذكر عنه المستشرق الألماني بارت أنه أبدى استعداداً للعمل في خدمة الاستعمار (٣) ولهذا المستشرق الهولندي مكانة عظمى بين زملائه من المستشرقين حتى إنه لينظَر إليه على أنه مؤسس علم الإسلاميات الحديث (٤) وقد استخدم كل وسيلة ممكنة – حتى ولو لم تكن أخلاقية – ليتوصل إلى ما كان يريد الوصول إليه من معلومات وأسرار ، حتى أنه تظاهر بالإسلام وتسمى باسم عبد الغفار ، وذهب إلى مكة التي ما كان له أن يدخلها لولا هذا الادعاء ، وفتح له هذا التظاهر كل الأبواب المغلقة ورحب به المسلمون وقدموا له كل عون ممكن لأنه مسلم مثلهم بحسب ظنهم (!) وقد

(١) انظر مثلاً : الميداني : أجنحة المكر الثلاثة ١٦٠ ، ١٦١ . ومجلة الفكر العربي : مرجع سابق ص٦ ، ٩٤ والاستشراق لادوارد سعيد ١٤٦ ، ٢٢١ وانظر لجارودي : الإسلام دين المستقبل ترجمة عبد المجيد بارودي دار الإيمان بيروت – دمشق ١٩٨٣ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) د / زقزوق : : الإستشراق ... ٥٥ .

(٣) بارت : مرجع سابق ٣٠ ، ٣١ .

(٤) د / قاسم السامرائي : الاستشراق مرجع سابق ١١٣ ويُعَد هذا المرجع من أو في المراجع في الحديث عنه انظر ١١٢ – ١٣٧ .

اتصل بالعلماء وحضر مجالسهم ، ووطد علاقاته بهم وخاصة علماء مكة ، وأمضى بمكة ستة أشهر كاملة حاول فيها أن يعرف مكة والبيت الحرام ومظاهر تعظيم المسلمين له ، وما تمتلىء به قلوبهم من المشاعر الفياضة عنده ، وتم له ذلك على نحو لم يتيسر لمستشرق من قبله ، ثم سافر بعد ذلك إلى اندونسيا وتزوج من ابنة أحد الأمراء المسلمين ثم رجع إلى هولندا وتقلد مناصب قيادية في السلطة[1] وقد أسهم في رسم سياسة حكومته ازاء المسلمسن في اندونيسيا وأشار على حكومته بما يعينها على مواجهة ثوراتهم وخاصة في اقليم آشية ، وكان مما أشار به عليها أن تعمل على ايجاد تيار قومي ، وآخر يساري ، وأن تترك التيارين يصارع أحدهما الآخر ، وكانت مشورته تلك من الأسباب التي جعلت اندونيسيا تعاني إلى وقت قريب .[2]

٣- على أن عمل بعض المستشرقين لم يقتصر على ما سبق ، بل إن فريقا منهم كانت لهم آراء تبتغي اضفاء المشروعية على الاستعمار وتبريره أمام الشعوب المستعمرة ، وتصويره لها على أنه عمل حضاري هدفه الارتقاء بهذه الشعوب المتخلفة ومن ثم يقتضي الثناء والشكر لهذه الدول الغازية لما تقوم به من تضحيات لتحقيق هذه الغاية .

وكان من بين من أسهموا في هذا المجال خرونيه السابق ذكره ، وقد كان ينظر إلى الأندونيسيين على أنهم مجموعة من البشر لا تختلف عن

---

(١) المرجعان السابقان : الصفحات نفسها . وانظر من الثاني : ١٢١ ، ١٢٥ .

(٢) انظر مقالة د / نعمان السامرائي كتاب الاستشراق لادوارد سعيد والمقالة منشورة بمجلة عالم الكتب - الرياض - مرجع سابق انظر ص ١٧٢ منها .

الحيوانات إلا قليلاً ، وقد أوصى بتدمير العلماء المسلمين الذين يجاهدون الاستعمار الهولندي ، والذين يشبهون - في رأيه - عصابة لصوص ، وذلك لان تدميرهم سيفتح الباب لاستعمار بعض الأقاليم التي لم تكن قد استسلمت لهولندا بعد « ومن ثم فان سكانه سوف يقبلون ما يملي عليهم من القيم الأوروبية التي ترفع من شأنهم ... » (١) وقد عبر اللورد كرومر الذي كان ممثلا للاحتلال الإنجليزي لمصر عن كون الإستعمار عملا حضاريا ينبغي تقديره ، غير أنه تشكك في أن تكون الشعوب المستعمَرة قادرة على القيام بهذا التقدير !! وقد قال في هذا الصدد « إنه ليرتاب فيما إذا كانت الشعوب الشرقية .. تعترف بالثمن الذي ينبغي أن يودي لقاء ما هو منقول إليها من الحضارة الغربية ، وأما المنافع المادية التي أصابها أهل الشرق من الحضارة الغربية فهي عظيمة بلا جدال ، وأما المنافع المعنوية فلا يستطاع حتى اليوم الوقوف على مبلغ تأثيرها في الفرد والمجموع » (٢) .

وترجع هذه الآراء إلى تلك النزعة التي سادت لدى بعض المستشرقين عن تفوق الغرب وهيمنته وسيادته ازاء الشرق المتخلف ، وهو اتجاه قديم ظهر لدى الأوربيين منذ اليونان والرومان الذين كانوا ينظرون إلى غيرهم من الشعوب - وخاصة اولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط - على

---

(١) د / قاسم السامرائي : الاستشراق .. مرجع سابق ١١١ .

(٢) ستودارد : حاضر العالم الإسلامي - مرجع سابق ٤/٦ ويشاركه ستودارد نظرته هذه . انظر ٤/ ٧ ، ٨ ، ٣٠ - ٣٢ . وقد وصف الشرق لدى كرومر وبلفور بأنه لا عقلاني ، فاسق ، طفولي ، مختلف. انظر ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٧٠ ، ٧١ .

أنهم برابرة ، على حين أن اليونان والرومان هم – وحدهم –المتمدينون(١) .

ووجد هذا الإتجاته تأييدا له في بحوث مجموعة كبيرة من المستشرقين الأوربيين ، ومن بينهم شليجل وبولياكوف ، وجوبينو وويل ودوزي وموير وغيرهم(٢) .

وقد كان المستشرق الفرنسي ارنست رينان (١٨٩٢م) من أبرز هؤلاء الذين عنوا بتأصيل هذه الفكرة ، مؤيدا اياها بما قام به من دراسات في مجال اللغات المقارنة ، وقد انتهى من دراساته إلى تقسيم اللغات إلى قسمين : آرية وسامية ، وتتميز كل منها عن الأخرى بخصائصها ، وقد انتقل رينان من نطاق الدراسات اللغوية إلى نطاق آخر يتعلق بعقليات الشعوب التي تتحدث بهذه اللغات ، وكان مما قاله إن الجنس السامي أقل من الجنس الآري ، وان خواص العقلية السامية تتجلى في البساطة التي هي أقرب إلى الضحالة والسذاجة في اللغة والصناعة والفن والمدنية ، أما النفس الآرية فتتميز بعقلية تميل إلى التعدد والانسجام ، فهي عقلية تركيبية قادرة على وضع الفسلفات والمناهج والشعر الراقي والأساطير المركبة(١) .

---

(٢) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق – ص ٥٢ مرجع سابق .

(٣) فؤاد فرسوني : بين الدراسات الإقليمية والدراسات الإستشراقية ص ٣٩ مرجع سابق .

(١) انظر للشيخ مصطفى عبد الرازق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩ وما بعدها مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ١٩٦٦/٣ وللدكتور / إبراهيم مدكور : في الفلسفة الرسلامية منهج وتطبيق دار المعارف ط ٢ / ١٩٦٨ جـ ١ / ١٦ وما بعدها وانظر كذلك ادوارد سعيد : الاستشراق مرجع سابق ١٥٨ – ١٦٤ .

وقد كانت هذه الدراسات تقدم الأساس الفلسفي لدعوى التفوق الأوروبي على شعوب الشرق ، وتقدم المبرر في الوقت نفسه – لاحتلالها بل لمطالبتها بتقدير هذا الجميل الذي تقدمه الدول المستعمرة إليها . !!

ولعل هذه العلاقة بين الإستعمار وبعض المستشرقين لم تنفصم عراها بَعْد ، ولكن المستشرقين لم يعودوا وحدهم في هذا المجال بل يشاركهم فيه كما يقول ادوارد سعيد نظم وشركات ومصالح ومؤسسات تعليمية وتبشيرية ، ومراكز ومعاهد ومنظمات ، وهي جميعا مكرسة لتأكيد شرعية عدد من الأفكار الأساسية غير المتغيرة حول الإسلام والشرق وعلاقته بالغرب (١) . وتسهم هذه جميعا في تشويه الشرق – والعرب خاصة – في أوروبا وأمريكا ، وتظهرهم في بشعة يتصفون فيها بالخيانة والسادية والمتاجرة في الرقيق ، وأن العربي وغد لئيم ، شهواني خبيث (٢) عدواني ارهابي .

وإذا كانت هذه المنظمات جميعا تتعاون في رسم هذه الصورة المشوهة فان الجهود الاستشراقية – وخاصة في أمريكا – تعد كما يقول من أكثرها تأثيرا عن طريق البعثات التي تذهب إليها ثم تعود إلى الشرق للتأثير فيه ، متعاونة في ذلك مع وسائل التأثير الأخرى (٣) .

---

(١) انظر ادوارد سعيد : الاستشراق ٣٠٠ .

(٢) السابق ٢٨٧ .

(٣) لعل ما كتبه ادوارد سعيد هنا يعد من أخطر ما تضمنه كتابه ، ومن أكثر ما كتبه صراحة وجرأة ، راجع كتابه ٣١٩ – ٣٢٢ . ويمكن القول بأن ما كتبه صادق في جملته ، وفي كثير من تفصيلاته .

هذه أهم أهداف الاستشراق ، وقد اختلط فيها العلم بأهداف أخرى تتعلق أحياناً بالتبشير ، وأحياناً اخرى بالاستعمار ، ومع أن ظروف العالم كله قد تغيرت ، منذ نشأ الاستشراق فى العصور الوسطى حتى الآن ، إلا أن هذه الأهداف مازالت تلقى ببعض ظلالها على الاستشراق فى العصر الحديث ، ولعل هذه الظلال هى التى دفعت بعض العاملين فى حقله الى أن يتبرأوا من هذا الاسم القديم بما يحمله من أثقال التاريخ .

ولاشك أن هذه الأهداف كلها ينبغي أن تكون موضع الملاحظة والاعتبار عند كل محاولة لتقويم ثمرات ونتاج هذا الاستشراق ، الذي تعددت مدارسه ، وتباينت أهدافه ، ولايصح إدراجه ضمن مدرسة واحدة ، ولاإخضاعه لهدف واحد ، وهذا شرط أَوَّلِيٌّ لسلامة مايمكن التوصل إليه من أحكام ، وهو شرط يجعل التقويم أقرب إلى الموضوعية ، وأدنى إلى الإنصاف ، وهو يتفق - على كل حال - مع الموروث من وصايا الإسلام ، وأخلاقه المعروفة ، وقد جاء بعضها في قوله تعالى :

﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين لله ، شُهداء بالقسط ، ولا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآَنُ قوْم على ألاَّ تعْدِلوا ، اعْدِلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ [المائدة : ٨] (١) .

على أن الإنصاف ليس معناه تقبل النتائج التي يتوصل إليها المستشرقون في دراساتهم في كل الأحوال ؛ لأن البواعث والغايات تحتمل

---

(١) وانظر ايات أخرى يكتمل بها هذا المعنى منها الآية رقم ١٣٥ من سورة النساء ، ١٥٢ سورة الأنعام .

الخلاف ، وإذا كان الخلاف محتمل الوقوع بين الدارسين بعضهم وبعض ، وهم أبناء حضارة واحدة ، ومواقع فكرية متقاربة ، فإن الاختلاف يكون أكثر احتمالاً ، إذا اختلفت الحضارات ، وتفرقت الانتماءات ، وتباينت البواعث والغايات ، وهي مؤثرة – دون ريب – في وجهات النظر بحيث تتعدد الرؤى وتختلف الآراء والأحكام . ولقد تساعد الموضوعية على الوصول إلى قدر كبير من الصواب ، غير أنها في العلوم الأنسانية ليست ميسورة إلا مع الجهد الجهيد .

رابعاً : إذا كنا قد تحدثنا عن تاريخ الاستشراق وأهدافه ، وعرضنا نماذج مجملة لبعض آراء المستشرقين عن الإسلام في مجالاته المختلفة ، فسنحاول أن نعرض نموذجاً تفصيلياً ، إلى حد ما ، وقد اخترنا هذا النموذج للمستشرق المجري جولد زيهر ، ويرجع اختيار هذا النموذج إلى ثلاثة أسباب :

أولها : تلك المكانة الكبرى لهذا المستشرق بين المستشرقين حتى أنه ليعُدُّ عند بعضهم واحداً من أثنين ، هما « المشجعان الكبيران على البحوث الإسلامية العامة » وهما « في نفس الوقت : واضعا أساس البحث العلمي في الشرع الإسلامي » (١) ثم يوصف عند واحد من كبار المهتمين بنقل تراث المستشرقين إلى اللغة العربية بأنه « أعظم من بحث في المذاهب الإسلامية في الكلام والتفسير والحديث ، من بين المستشرقين جميعاً ، ولعله أن يكون أقدر

---

(١) يوسف شاخت : ثلاث محاضرات في تاريخ الفقه الإسلامي ، ضمن المنتقى من دراسات المستشرقين ، جمع ونقل وتعليق د / صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد ، لبنان ط ٢ / ١٩٧٦ حـ ١ / ٩١ .

باحث استطاع أن ينفذ إلى طبيعة الحياة الدينية في الإسلام ، وأن يحلل تياراتها ، ويكشف عن جوهرها ، والعوامل المؤثرة فيها ، والتأثرات التي خضعت لها » (١) وبأنه سيد الباحثين في الإسلام من الناحية الدينية خاصة ، والروحية عامة ، وأنه ظل شمساً ساطعة استمرت ترسل في عالم البحوث الإسلامية ضوءها لمدة تزيد على ربع قرن ، لتبدد مايحيط بنواحي الحياة الدينية الإسلامية من ظلام (٢) .

وثانيها : أنه كان أستاذاً لجيل كامل من المستشرقين ، ومن الطبيعي أن يكون لآرائه - عندهم - مكانة عظمى ، فهي ترتفع إلى مقام الحُجَّة الموثَّقَة ، التي تصلح للاعتماد عليها ، والاستدلال بها ، بحيث لايقوم أحد بإعادة البحث ، أو المناقشة للنتائج التي توصل إليها . ومعنى ذلك أن يكون رأيه بمثابة القاعدة أو الأساس لآراء المستشرقين فيما يبحثه من مسائل وقضايا ، ويمكن اعتباره ممثلاً لآرائهم ، ومعبراً عنها .

وثالثها : أن رأيه الذي اخترناه للعرض والمناقشة يُعَد أكثر آرائه أهمية وخطورة ؛ لأنه لايتعلق ببعض المسائل الفرعية أو القضايا التي يمكن اعتبارها ثانوية أو أقل أهمية ، إذا قورنت برأيه الذي سنعرضه هنا ، كما أنه لايتعلق بدراسة لغوية ، أو حديث عن ظاهرة اجتماعية عاشتها - أو تعيشها - المجتمعات الإسلامية ، أو نحو ذلك من الموضوعات التي قد ينشغل بها غيره

---

(١) د / عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، دار النهضة العربية ط ٣ / ١٩٦٥ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) السابق : ٣٠٧ ، ٣٠٩ .

من المستشرقين ، ولكن رأيه يتجه مباشرة إلى دراسة ومناقشة جوهر الإسلام ذاته ، من حيث مصدر القرآن الكريم ، وطبيعة الوحي إلى الرسول ﷺ ، وتفسير ظاهرة النسخ في القرآن وعلاقة ذلك كله بالظروف الاجتماعية التي أحاطت بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن الواضح – حتى من قبل أن نعرض رأيه – أهمية المسائل التي يتناولها ، وخطورة النتائج التي تترتب عليها ، وخاصة لدى القارئ الأوروبي الذي يبهره هذا الحشد من المصادر ، وهذا التعمق في تحليل النصوص ومقارنتها ، ومحاولة النفاذ إلى أعماقها ، واستخلاص ماتنطوي عليه من نتائج ، وماتدل عليه من دلالات .

وتتلخص آراء جولد زيهر التي ذكرها في كتابه : العقيدة والشريعة في الإسلام في أن الإسلام ليس راجعاً إلى مصادره المعروفة المتمثلة في القرآن والسنة ، ولكنه يرجع إلى مصادر متعددة يمكن تقسيمها إلى قسمين :

– مصادر ذاتية ، تتمثل في القرآن والسنة .

– مصادر خارجية تتمثل في التأثر بالديانات والحضارات السابقة .

فأما المصادر الذاتية فإنها – في رأيه – لاتقدم شيئاً جديداً أو طريفاً يتميز به الرسلام ، بل إن ماجاء به محمد ﷺ « ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها ، أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها ، التي تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه ، ... لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه ، وأدركها بإيحاءِ قوَّتهُ التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً ، فأصبح

بإخلاص – على يقين بأنه أداة لهذا الوحي » (١) ويضيف جولد زيهر إلى هذا أن محمداً اضطرته مشاغله خلال النصف الأول من حياته إلى أن يلتقي ببعض الأوساط التي استقى منها بعض الأفكار ، التي أخذ يَجْتَرُّهَا في قرارة نفسه ، وهيأت له العزلةُ مزيداً من التأمل ، الذي توافق مع ميله إلى التأمل المجرد ، الذي تأثر بحالته المرضية (!) ، ودفعه ذلك كله دفعاً إلى مخالفة قومه الأقربين والأبعدين ، في العقائد والأخلاق (٢) .

ومن تلك الأوساط التي تأثر بها الرسول – عنده – أوساط يهودية عرَّفته بالعهد القديم ، وشخصيات وعناصر مسيحية ، تابعة للمسيحية الشرقية القديمة ، وينضم إلى هؤلاء وأولئك شخصيات متأثرة بالغنوصية الشرقية كالمرقونية والزرادشتية الفارسية ، وليس غريباً ، والأمر عنده كذلك – أن يتأثر أيضاً بالوثنية العربية التي كان يعيش في ظلها (٣) .

ولايكتفي جولد زيهر بهذه المعارف الواردة إلى الرسول ﷺ من شتى نظم المعرفة الموجودة آنذاك ، والتي تمثل دائرة معارف متضاربة غير متناسقة ، يجتمع فيها الوحي ، وتقاليد الوثنية : فارسية وعربية ، وإنما يضيف إلى ذلك براعة الرسول في تحليل الواقع ، ودراسة الظروف ، وسنّ التشريعات الملائمة لها . ويكشف ذلك عن مقدرته على فهم البيئة ، ومجاراة التطور ، وتعديل التشريع تبعاً لذلك ، ويذكر – في هذا الصدد – أن القرآن –

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام : مرجع سابق ص ١٢ .

(٢) انظر السابق : ١٣ .

(٣) انظر السابق : ١٥ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ .

في مكة - لم يهتم إلا بالحديث عن اليوم الآخر ، لكنه ظهر - في المدينة - بمظهر آخر ، يحمل طابع الوطن الجديد ، ولذلك وجدنا الرسول مجاهداً غازياً ، ورجل دولة ، ومنظِّم جماعة جديدة ، ومعنى ذلك أن المدينة مثَّلتْ « مرحلة من مراحل تكوين الإسلام الديني » (١) وقد دفعته هذه الظروف الجديدة « إلى تجاوز بعض الوحي القرآني إلى وحي جديد في الحقيقة ، وإلى أن يعترف بأنه ينسخ - بأمر الله - ماسبق أن أوحاه الله إليه » (٢) .

ويلاحَظ أن القرآن - في رأيه - يرجع إلى مصادر متنوعة ، ومنابع مختلفة ، بعضها يرجع إلى حالته النفسية ، وبعضها يرجع إلى دراسة الواقع وفهمه ، وبعضها يرجع إلى ماعرفه من العقائد والحضارات ، وتراث الوثنيات الفارسية والعربية . ومن شأن هذا كله أن يؤدي إلى وقوع الاختلاف والتناقض في القرآن ذاته ، ولايترك جولد زيهر الأمر لاستنباط هذه النتيجة أو استنتاجها ، بل إنه يذكرها صراحة ، فيقول « وهو - في مجموعه - مزيج من الطوابع المختلفة ، اختلافاً جوهرياً » (٣) وبسبب ذلك كان من العسير « أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً !! موحداً متجانساً ، وخالياً من التناقضات . ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطراً إلا آثار عامة ، نجد فيها - إذا بحثنا في تفاصيلها أحياناً - تعاليم متناقضة » (٤) .

(١) السابق : ١٤ - ١٨ والنص من ص ١٨ .

(٢) السابق : ٤١ .

(٣) السابق : ٢٢ .

(٤) السابق : ٧٨ ، وهو يرى أن الذين بذلوا الجهود للقضاء على هذه التناقضات ، وملء الثغرات والفجوات هم طائفة علماء الكلام الذين بدأ ظهورهم بعد ظهور الإسلام بزمن قليل انظر : ٨٧ ، ٨٨ .

ويضيف جولد زيهر إلى ماسبق نتيجة أخرى لاتقل خطورة ، وهي أن القرآن - بسبب ارتباطه بشخصية الرسول وافتقاده إلى المصدر الإلهي - لم يكن قادراً على الإجابة على تساؤلات المسلمين ، ومن ثم فإنه « بعيد كل البعد عن أن يكفي لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية » (١) ومعنى ذلك أن حظه في بناء الإسلام قليل ، « ومن الخطأ الخطير أن ننسب للقرآن أكبر القيم في بيان طابع الإسلام بوجه عام ، كما أننا - من باب أولى - لانستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام ، مستندين إلى هذا الكتاب وحده ... والواقع أن هذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا في خلال العشرين سنة الأولى من نموه » (٢)

ولقد كان المسلمون - نتيجة لذلك - مضطرين إلى الاجتهاد ليتداركوا ما في النصوص من نقص ، ثم كانوا مضطرين - كذلك - إلى الاستعانة بمصادر أجنبية ، تمثل العنصر الخارجي في بناء الإسلام ، ومن الواضح أنه يجعل لها النصيب الأعلى في هذا البناء ، حيث تتفوق على العناصر الذاتية المتمثلة في القرآن والسنة ، التي لاتخلو من أهمية « ولكن أثر الضرب الثاني من هذه التأثيرات أي التأثيرات الروحية التي جاءته من غيره ، واستوعبها وتمثلها هو الذي يميز أهم عصوره في رأى الباحثين » (٣) .

وإذا كان القرآن نفسه قد خضع - عند جولد زيهر - لظاهرة التأثر

(١ ، ٢) السابق : ٤١ .

(٣) السابق : ١٠ .

بالديانات والحضارات السابقة (١) ، فإنه لاغرابة في أن يتأثر الإسلام - كذلك - بهذه المؤثرات ، وأن تكن أكثر تنوعاً ، وإليها يرجع الفضل - عنده - في بناء الجانب الروحي والثقافي للإسلام ، الذي يعد بوتقة انصهرت فيها هذه الروافد الواردة إليه من مصادر شتى ، فالإسلام قد نضجت أفكاره ، ونمت بتأثير الآراء والأفكار الهِلّينستيّة ، أما نظامه الفقهي فقد تأثر بالقانون الروماني ، وتأثر نظامه السياسي - كما تكوّن في عصر الخلفاء العباسيين بالأفكار والنظريات السياسية الفارسية ، أما التصوف فليس إلا تمثلاً لتيارات الآراء الهندية ، والفلسفة الأفلاطونية المحدثة . وإذا كان هذا التأثر بهذه المصادر ليس ظاهراً ملموساً فالسبب في ذلك عنده أن الإسلام يمتلك القدرة على صهر وتمثُّل العناصر الأجنبية ، ولذلك يصعب إبرازها « إلا إذا حُلِّلَتْ تحليلاً عميقاً ، وبُحِثت بحثاً نقدياً دقيقاً » (٢) .

ولعله يقل أن نجد مثل هذا الكمِّ الضخم من الأفكار المتعلقة بالقرآن والوحي والإسلام والرسول لدى مستشرق آخر على هذا النحو الذي نجده لدى جولد زيهر ، وقد تضمنت هذه الأفكار عدداً من المعاني التي تتصادم مع الإسلام وتخالفه مخالفة جذرية جوهرية من حيث العقيدة والشريعة ، كما تخالف موقفه من الاجتهاد ، ونظرته إلى تراث الأمم الأخرى ، وهي مرتبطة

---

(١) وهو يطبق هذا على السنة أيضاً ، حيث وردت فيها - عنده - جُمَل أخذت من العهدين القديم والجديد ، والأناجيل الموضوعة ، وأقوال الربانيين ، والفرس والهنود ، وتعاليم الفلسفة اليونانية !! انظر ص ٥١ وانظر رداً مفصلاً على هذه الأفكار لدى د / مصطفى السباعي في كتابه : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي - المكتب الإسلامي ط ٢ / ١٩٧٨ - ص ١٨٩ - ٢٣٥ .

(٢) العقيدة والشريعة ... ص ١٠ .

بموقف الإسلام من الحضارة وإسهام المسلمين في بنائها .

مناقشة هذه الآراء :

ومثلما أتحنا الفرصة لعرض هذه الآراء - على خطورتها - فإننا سنحاول أن نتوقف لمناقشتها ، مع التسليم بأن المناقشة المستفيضة لكل جزئياتها تستلزم فرصة أوسع من تلك التي يتيحها مثل هذا البحث ، الذي يتحدث عن الاستشراق والمستشرقين وأهدافهم بصفة عامة ، وهذا يقتضي التركيز على الأفكار والقضايا - والدعاوي - الهامة التي وردت في كلامه ، ومن أهمها مايأتي :

١ - القول ببشرية القرآن ، وأنه من كلام محمد ﷺ ، وإنكارُ الحقيقة الخارجية للوحي ، وتفسيره بالعوامل النفسية والاجتماعية والثقافية المتمثلة في تلك المصادر المتنوعة والروافد المختلفة التي حملها إلى الرسول بعض أهل الكتاب ومن يجري مجراهم من المنتسبين إلى الحضارات المختلفة .

ويلفت النظر أن بعض هذه الدعاوي أو أكثرها قد جاء على لسان بعض المشركين المعاصرين للرسول ﷺ ، وأن القرآن لم يتجاهل هذه الدعاوي ، بل سجلها في اياته :

﴿ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلاَّ إفْكٌ افتراه ، وأعَانَهُ عليه قومٌ آخرون . فقد جاءوا ظُلْماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكْتَتَبَهَا فهي تُمْلَىَ عليه بُكْرَةً وأصيلا ﴾ (الفرقان : ٣ - ٥) .

﴿ وإذا بدلْنا آيةً مكان آية ، واللهُ أعلمُ بما يُنَزِّل قالوا إنما أنت مُفْترٍ ،

بل أكثرهم لايعلمون .... ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بَشَر .... ﴾ (النحل : ١٠١ ، ١٠٣) .

ولم يكتف القرآن بترديد هذه الادعاءات ، بل إنه ردَّ عليها ، مبيناً للمشركين ومذكراً لهم بأن الرسول لم يكن قارئاً للكتب ، ولا مدوِّناً لها ، وأنه لم يذهب إلى المعروفين بعلم الكتب ليتعلم منهم حقائق الإيمان والإسلام ، وأن أمر محمد لم يكن خافياً عليهم ؛ لأنه كان يعيش بينهم ، وأن هؤلاء الذين ادعوا أنه يذهب إليهم ليتعلم منهم لايمكن أن يكونوا هم الذين أوحوا إليه بهذا القرآن ، لأنهم كانوا من الأعاجم الذين يعجزون عن الوصول إلى مستوى البيان القراني المعجز ، خصوصاً وقد عجز العرب أنفسهم عن الارتقاء إلى هذا المستوى ، ومن آيات القرآن الدالة على هذه المعاني :

﴿ وماكنتَ تتْلُو من قبله من كتاب ، ولا تخطُّه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون ﴾ (العنكبوت : ٤٨)

﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّنات قال الذين لايرجون لقاءنا ائْتِ بقرآنٍ غير هذا أوْ بدِّله ، قل مايكون لي أنْ أُبَدِّله من تلقاءِ نفسي إنْ أَتَّبِعُ إلا مايُوحَى إليَّ ، إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم . قل لَوْ شاءَ اللّهُ ماتلوتهُ عليكم ولا أدراكم به ، فقدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً من قبله ، أفلاَ تعقِلُون ﴾ (يونس : ١٥ ، ١٦) .

﴿ ولقد نعلَمُ أنهم يقولون : إنَّما يُعَلِّمهُ بشر ، لِسَانُ الذي يلْحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربي مبين ﴾ (النحل : ١٠٣) .

إلى آيات أخرى كثيرة في القرآن ، تتضافر جميعها على رد تلك الفِرية التي افتراها المشركون ، ليفسروا ظاهرة الوحي التي نتج عنها هذا القرآن ، ولقد كان مما تدل عليه الاية الأخيرة أن التعلم لايتأتى في جلسة واحدة ، بل إنه يحتاج إلى أزمنة متطاولة ، ومدد كثيرة ، وهو لايتم - عندئذ - في الخفاء ، بل إن القائمين به مضطرون إلى إظهاره ، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين الناس أن محمداً يأتي أصحاب العلوم ليتعلم منهم .

وكان مما تدل عليه الاية - كذلك - أن العلوم الموجودة في القرآن كثيرة ، وهي لاتتأتى إلا إذا كان صاحبها على غاية من العلم والفضل والإحاطة والتحقيق ، ولو وُجِد - في مكة - من أهلها أو من غيرها مَن وصل إلى هذه الدرجة في العلم والفضل لكان معروفاً لهم جميعاً بهذه الصفات الكاملة ، ولكان - عندئذ - جديراً بأن ينشر في الناس علمه ، دون أن يلَقِّنه لرجل آخر يظفر بالفضل والمكانة والذكر الذي هو مستحق له ، ولكان - كذلك - جديراً بأن يذيع على الناس أنه هو الذي علم محمداً ﷺ هذه العلوم(١) .

وقد جاء المستشرقون فرددوا هذه المقالة التي سبق إليها المشركون ، ولذلك نجدها شائعة بينهم ، ولقد كان من وسائلهم إلى تثبيتها وتأكيدها أن يُنْسَبَ الإسلام نفسه إلى محمد فيقال عنه : الدين المحمدي ، ويوصف المسلمون بأنهم محمّديون ، وذلك - كما يقول موريس بوكاى - دليل على الرغبة في أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطئ القائل بأن تلك

(١) انظر : تفسير الفخر الرازي ، طبعه بولاق ١٢٨٩ هـ مجلد ٤ / ١٨٦ وهو يذكر معاني أخرى تتضمنها هذه الآية وهي ١٠٣ من سورة النحل .

معتقدات انتشرت بفضل جهاد رجل ، ويلاحظ بوكاى أن كثيراً من المثقفين المعاصرين في الغرب « يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية في الإسلام ، دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامي بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويرون من البديهيات أن محمداً ﷺ قد اعتمد على ماسبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحي منذ البدء » (١) .

وقد كان جولد زيهر من أكثر هؤلاء المستشرقين أهتماماً بتأكيد بشرية القرآن ، وإلحاحاً عليها ، وجمعاً للشواهد المؤكدة - من وجهة نظره - لها . غير أنه يمكن القول إن نصوص القرآن وملابسات نزوله ، وواقع أحوال الرسول ﷺ تنفي هذه الدعوى ، وتؤكد أن القرآن من وحي الله تعالى إلى رسوله ، وأن الرسول لم يكن له من عمل فيه إلا التلقّي ثم البلاغ والبيان ، ويدل على ذلك أدلة كثيرة منها مايأتي :

أ - يتحدث القرآن عن الرسول ﷺ على أنه عبد الله ورسوله ، وأنه خاضع لأمر الله وشرعه ، لايملك له رداً ولا رفضاً ، وقد تكررت في القرآن صيغ الأمر إليه بتقوى الله وتلاوة كتابه والاستقامة على أمره ، والعدل بين عباده ، والمخالفة للكافرين والمنافقين والصبر على أذاهم ونحو ذلك من الأوامر ، وجاء ذلك في صيغ كثيرة اشهرها صيغة « قل » التي تكررت في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة (٢) وتأتي هذه الأوامر شاملة لأصول العقيدة ،

(١) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ، طبع دار المعارف ١٩٧٩ ص ٦ .

(٢) راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة قال : صيغة قل ، حيث يذكر العدد ٣٣٢ وتكاد تكون كلها موجهة إلى الرسول ﷺ ، بحيث يندر جداً من بينها ماليس موجهاً إليه ومن أمثلة هذا النادر الآية ٢٩ من سورة المؤمنون والآية ٨ من سورة الزمر .

ولكثير من أحكام الشريعة ، كما تأتي رداً على التساؤلات التي كانت توجه إلى الرسول ﷺ من المؤمنين ومن غيرهم .

ويلفت النظر في بعض الأوامر التي وردت بصيغة قل أن بعضها يتعلق بالرسول نفسه ، وهو يؤمر فيها بأن يبين للناس أنه لايعلم الغيب ، لأنه لايعلم الغيب إلا الله ولايعرف متى تقوم الساعة ، وأنه لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً ، وأنه ليس على الناس بوكيل ، كما أنه ليس عليهم بمسيطر ، بل إنه ليس له من الأمر شئ ، لأن الأمر كله لله ، وأنه لايدري مايُفْعَل به ولابغيره ، وأنه لن يُجِيره من الله أحد ، ولن يجد من دونه ملتحداً ، وأنه إن ضل فإنما يضل على نفسه ، وإن اهتدى فبما يوحى به إليه ربه ، وأنه لايملك للناس ضراً ولارشداً وأنه لايستطيع أن يهدى من أحب لأن أمر الهدى إلى الله وحده . وقد وردت في ذلك كله آيات كثيرة لايمكن إيرادها جميعاً ، وإنما يمكن الاكتفاء ببعضها ،ومنها :

﴿ قل لاأقول لكم عندي خزائنُ الله ، ولاأعلمُ الغيب ولاأقول لكم إني ملَك ، إن أتَّبعُ إلا مايُوحَى إليَّ ... ﴾ (الانعام : ٥٠)

﴿ قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، ومامسَّني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ (الاعراف : ١٨٨) .

﴿ قل ماكنتُ بدْعاً من الرسل ، وماأدرى مايفعل بي ولابكم ﴾ (الأحقاف : ٩) .

﴿ قل إني لاأملك لكم ضَراً ولارَشَدا ، قل إني لن يُجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ (الجن : ٢١ ، ٢٢) .

ثم أنه يؤمَر في القرآن بأن يقول عن نفسه :

﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (الحاقَّة : ٤٤ - ٤٧) .

﴿ ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (آل عمران : ١٢٨) .

وهذه الآيات وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن الآمر به ليس هو الرسول ، بل إن الآمر بها قوة أعلى منه ، وإن لها من السلطان والهيمنة عليه مايتيح لها أن تأمره ، وأنه لايملك إزاءها إلا الامتثال والطاعة ، وليس القرآن - إذن - من كلام محمد ﷺ ، وإنما هو مُوحى إليه .

ب - تدلُّنا أسباب نزول بعض الآيات على أن الرسول ﷺ كان يُسْأل - أحياناً - عن الحكم في بعض الوقائع فيجيب بأنه لايعلم من أمره شيئاً ، وينتظر من الله تعالى الإجابة والبيان ، ويظل على ذلك حتى ينزل عليه الوحي مُعَلَماً ومبيناً ، ومن أمثلة ذلك ماجاء في تشريع حكم اللِّعان ، بعد مانزل حكم الله عز وجل بجلد من يقذف اعراض المسلمين والمسلمات ثمانين جلدة ، والحكم بفسقه وعدم قبول شهادته إذا لم يأت القاذف بأربعة شهداء يشهدون على صدقه ، وهو الحكم الذي تضمنته الآيتان الرابعة والخامسة من أول سورة النور ، وعندما نزلتا فَهِمَ منها بعض الصحابة معنى العموم ، بحيث

تُطَبَّق في كل الأحوال حتى في علاقة الأزواج بعضهم ببعض ، وخشوا أن يطالب الزوج – مثلاً – بإشهاد أربعة من الشهود على زوجه إذا وقعت في الفاحشة ، وإلا عرَّض نفسه للفسق والجلد ، وقد شكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ وازداد الأمر حرجاً عندما وقعت واقعة من هذا النوع « فكره رسول الله ﷺ ماجاء به (هلال بن أمية) واشتد عليه . فقال سعد بن عبادة : (الذي كان قد تعجب من الحكم بسبب غيرته) : الآن يَضْرب رسول الله ﷺ هلال ابن أمية ، ويبطل شهادته في المسلمين ! . فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً ... فوالله ان رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذ نزل عليه الوحي – وكان إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربُّدِ جلده – فأمسكوا عنه ، حتى فرغ من الوحي » فنزلت آيات اللعان (١) وتكرر ذلك في حكم الظِّهار الذي نزلت أحكامه في أول سورة المجادلة (٢) بل إنه تكرر فيما هو أشد وأقسى حين تحدث أهل الإفك بما ينال الرسول ﷺ نفسه في عِرْضِ أهله ، وشرف زوجه السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق ، حيث تحدث أهل الإفك بذلك حتى بلغ الأمر الرسول ، وهو يجد لذلك حرجاً وضيقاً وكرهاً ، وإنه ليستشير بعض كبار الصحابة مع علمه ببراءة أهله ، ولكنه لايقطع في الأمر بشئ بل إنه ليقول للسيدة عائشة « ... ياعائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب

---

(١) النيسابوري (أبو الحسن على بن أحمد) : أسباب النزول ، دار المعرفة – لبنان – دون تاريخ ٢٣٧ ، ٢٣٨ وانظر صحيح البخاري طبع الحلبي ، كتاب التفسير ، سورة النور ٣ / ١٦١ – ١٦٣ حيث يورد – كذلك – روايات أخرى .

(٢) انظر أسباب النزول : ٣٠٤ – ٣٠٦ .

فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » ويستمر الأمر على ذلك شهراً كاملاً ، وأهل النفاق يلغون في عرض الرسول وأهله ، ولكنه لايملك من الأمر شيئاً ، ويظل الحال على ذلك « حتى أُنزل عليه ، فأخذه ماكان يأخذه من البُرَحاء ، حتى إنه ليتحدَّر منه مثل الجمان من العرق ، وهو في يوم شاتٍ ، من ثِقَل القول الذي ينزل عليه » فأنزل الله براءتها ، فقالت لها أمها : « قومي إليه (أي لتشكريه) قالت : فقلت : والله لاأقوم إليه ، ولاأحمد إلا الله عز وجل [1] » ولو كان أمر الوحي والقرآن لمحمد ﷺ لما صبر على الأذى شهراً كاملاً ، ولو كان أمر الوحي والقرآن إليه لشكرته السيدة عائشة ، ولكنها عرفت الحق لأهله ولم تشكر إلا الله تعالى الذي أنزل براءتها ، وإنها لقادرة بما تعرفه من أخلاقه وأحواله على أن تفرق بين ماهو من قوله وبين مايوحَى إليه ، وإنها لتستشهد على ذلك بما كان يقع له من تغير جسماني مصاحب لتنزُّل الوحي عليه ، وهو أمر شهد به الصحابة فيما نقلناه عنهم في الحديث عن حكم اللعان ، وهذا كله وماشبهه من شهادات الصحابة في وقائع أخرى [2] يدل على أن الوحي ليس شيئاً ذاتياً داخلياً ، ولكنه وارد إليه ونازل عليه من مصدر خارجي أسمى وأعلى ،

---

(١) صحيح البخاري : كتاب التفسير ، سورة النور ٣/١٦٣-١٦٦ . وانظر اسباب النزول ٢٣٨-٢٤٣ وقد جاء في آخر الرواية فيه ، والله لا أقوم إليه ولاأحمد إلا الله سبحانه وتعالى ، هو الذي برأني ص ٢٤٣

(٢) انظر مثلاً صحيح البخاري : باب كيف كان بدء الوحي ١ / ٧ ، ثم كتاب الصلاة باب ما يذكر في الفخذ ١ / ٧٧ ومسند أحمد طبع المكتب الإسلامي ط ٤ ، ٢ / ٥٣٨ ، ٥ / ٣٢٧ ، ٦ / ١٠٣ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ومواطن أخرى .

وهو لايملك للوحي طلباً ولارداً ﴿ ومانتنزّل إلا بأمر ربك ، له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك ، وماكان ربك نسيا ﴾ (مريم : ٦٤) بل إنه لايملك له استعجالاً ﴿ ولاتقولن لشئ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف : ٢٣ ، ٢٤) وإنه ليبطئ عنه أحياناً ، وهو شديد الحاجة إليه فلا يملك له تنزيلا[1] وعن هذا الوحي جاء القرآن على عكس مايرى جولد زيهر .

جـ - ويتأكد ذلك بما نجده في القرآن من وقائع ، جاء الحكم فيها مخالفاً لاجتهاد الرسول ﷺ فيها ، فلقد كانت تقع الحوادث أحياناً ، دون أن يكون لدى الرسول فيها وحي منزّل ، فيجتهد الرسول عليه السلام في تبين حكمها ، وقد ينزل القرآن أحياناً ليبين له أن اجتهاده لم يوافق مراد الله عز وجل فيها ، كموقفه من أسارى بدر حين قبل منهم الفداء ، عملاً بمشورة بعض أصحابه ، ثم نزل القرآن بحكم آخر دلت عليه آيات من سورة الأنفال (آية ٦٧ ومابعدها) وموقفه من عبد الله بن أم مكتوم الذي عاتبه الله عليه كما تدل على ذلك الآيات الأُوَل من سورة عبس ، وإذْنُه لبعض المنافقين بالتخلف عن الخروج إلى الجهاد في غزوة تبوك ، وهو الذي عاتبه القرآن عليه في الآيات من سورة التوبة (٤٣ ومابعدها) . وقد يبلغ الأمر في العتاب مبلغاً لايمكن أن يكون صادراً من الانسان عن نفسه ، لأنه يكشف من دخيلته ما لا يحب للناس أن يعلموه عنه ، ومن ذلك قول الله تعالى عنه في قصة زواجه من زينب بنت جحش رضى الله عنها ﴿ ... وتُخْفى في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ... ﴾ (الأحزاب : ٣٧) وهي التي تقول

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، أول مابدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة ٤ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

عنها السيدة عائشة رضى الله عنها « لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أُوحى إليه من كتاب الله لكتمها » [1] ويقرب من هذا ماتحدث به القرآن عن الرسول حين حرَّم على نفسه ماأحل الله له ، مرضاةً لأزواجه فعاتبه الله على ذلك في الآيات الأولى من سورة التحريم (الآية الأولى ومابعدها) . وهذه الوقائع ومأشبهها تكشف عن أن محمداً ليس هو الذي ألَّف هذا القرآن من عند نفسه ، وإلا لما جعل فيه هذه الايات التي تعاتبُه ، وتظهر من أمره ما لايود الانسان إظهاره .

د - ثم يأتي إعجاز القرآن ليكون من أعظم الأدلة على إبطال فكرة بشرية القرآن التي يقول بها جولد زيهر وغيره ، وللإعجاز جوانب متعددة يطول الحديث عنها ، ومن جوانب هذا الإعجاز مايتعلق بما ورد في القرآن من أخبار بدء الخلق وأخبار الأمم الماضية التي لم يكن للرسول ولا لقومه علم بها ؛ لأنها أخبار أمم بعيدة عنهم ؛ ولأنهم كانوا أمة أمية لاتتجه همتها إلى التعرف على أخبار غيرها .

ولقد كان القرآن يحكي أخبار الأمم وقصص الأنبياء ثم يُعقِّب عليها بما يدل على أن ذلك من الغيب الذي ليس للرسول ولا لقومه علم به .

﴿ تلك من أنباء الغيب نُوحِيها إليك ، ما كنت تعلمها أنتَ ولا قَوْمُكَ من قبل هذا .... ﴾ (هود : ٤٩) .

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إِذ أجمعوا أمرهم

(١) تفسير ابن كثير طبعة الشعب بتصرف يسير جداً في اللفظ مجلد ٦ / ٤٢٠ .

وهم يمكرون ﴾ (يوسف : ١٠٢) إلى آيات أخرى[١] .

ولايمكن تفسير العلم بهذه الأخبار بأنه أثر من آثار الخيال ؛ لأن الخيال لايستطيع أن يكتشف حوادث الماضي الموغلة في القدم ، ولا أن يتحدث عن دقائقها وتفصيلاتها التي تتضح به صورتها حية متميزة كما وردت في القرآن ، وقد يستطيع الخيال تركيب نسق أو صور ليس لها وجود في دنيا الواقع ، وقد يستطيع تفسير بعض الحوادث الواقعية بافتراض علل أو أسباب لها ، لكنه لا يستطيع مهما أوتى من البراعة والقوة أن ينشئ تاريخاً صادقاً ، لوقائع لم يشهدها ولم يعاصرها ، أو لم يَرِدْ إليه علم مكتوب بشأنها من معاصرين لها .

ثم لا يمكن تفسير العلم بهذه الأخبار بأنه أثر من آثار العلم بكتب أهل الكتاب لأسباب عديدة ، سنتحدث عنها في فقرة لاحقة ، ويمكن الإشارة - هنا - إلى أن بعض الأحداث التي وردت في القرآن لا تتفق في تفصيلاتها وجزئياتها مع ما ورد بشأنها في التوراة أو الإنجيل ، ومن الأمثلة التي وقعت فيها المخالفة :

- ما تذكره التوراة من أن الأرض ملعونة بسبب خطيئة آدم[٢] .

- تذكر التوراة أن الحية هى التي أغرت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة وكان ذلك سببا من أسباب لعنتها[٣] ولا يتحدث القرآن عن لعنة

(١) راجع مثلاً الآية ٤٤ من سورة آل عمران ، والآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة القصص .

(٢) سفر التكوين : اصحاح ٣ فقرة ١٧ .

(٣) السابق فقرة من ١٣ - ١٥ .

الأرض ، ولا يرد فيه شئ عن إغراء الحية لحواء .

- تتحدث التوراة عن أن امرأة نوح وكل أبنائه كانوا معه في السفينة[١] على حين يتحدث القرآن عن أن امرأته وأحد أبنائه لم يكونا معه بسبب إصرارهما على الكفر .

- تذكر التوراه أن إبراهيم - عليه السلام - ذبح عجلاً للرجال الذين جاءوه فأكلوا منه[٢] على حين يذكر القرآن أن أيدي هؤلاء لم تصل إلى الطعام ، وسياق الحديث فيهما عن الملائكة الذين جاءوا إلى إبراهيم على هيئة بشرية .

- تتحدث التوراة عن أن عصا هارون هى التي أكلت ثعابين السحرة[٣] بينما يذكر القرآن أن الذي فعل ذلك هو عصا موسى عليه السلام الذي اصطفاه الله لرسالته ، وأيده بآياته .

- تذكر التوراة أن هارون - عليه السلام - هو الذي صنع العجل الذهبي لبني إسرائيل[٤] بينما يذكر القرآن أن الذي فعل ذلك هو السامري ، وأن هارون أنكر عليهم ذلك فأنوه ؛ لأنه لا يعقل أن يدعو أحد الأنبياء إلى الشرك ، لأن أهم ما جاء به الأنبياء هو الدعوة إلى توحيد الله تعالى .

---

(١) التكوين : اصحاح ١٨/٦ ، واصحاح ١/٧ ، ١٣ .

(٢) التكوين : اصحاح ٦/١٨ - ٨ .

(٣) الخروج : اصحاح ٩/٧ ، ١٢

(٤) الخروج : اصحاح ١/٣٢ - ٤ ، ٢١ - ٢٤ ، ٣٥ .

- تذكر التوراه أن الله تعالى يفتقد إثم الآباء في الأبناء ، في الجيل الثالث والرابع من مبغضيه[1] على حين أن القرآن يذكر أنه لا تزر وازرة وزر أخرى . وهذا قليل من كثير ، وهو كافٍ[2] في الدلالة على أن ما جاء في القرآن من أخبار الماضين ليس مأخوذاً من كتب أهل الكتاب ، بل هو مأخوذ من مصدر مستقل هو وحي الله تعالى إليه ، لأنه ما كان يقرأ الكتاب ولا يخطه بيمينه ، ولأن قومه لم يكونوا على علم بهذا الذي يذكره لهم .

* ومن جوانب إعجاز القرآن - كذلك - ما يتعلق بالغيب الذي ينصب على **المستقبل** ، حيث ذكر القرآن نبوءات تحققت ، منها : بشارة الله تعالى له وللمسلمين بأن يدخلو المسجد الحرام بعد أن مُنِعوا من ذلك ، وبأن يعجل الله لهم دخول مكة فاتحين ، مع أنهم كانوا قد عقدوا صلحاً مع أهل مكة في العام السادس للهجرة ، كانت مدته عشر سنوات ، ولكن الفتح تم بعد عامين فقط من عقد الصلح ، ولذلك قال الله تعالى في سياق الحديث عن هذه البشارة ﴿ ... وَعَلِمَ ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (الفتح : ٢٧) .

وكان من إخبار القرآن بالغيب المتعلق بالمستقبل ما ذكره من غلبة الروم للفرس ، بعد أن ذاقت الهزيمة على يديها ، وقد جاء النصر على غير توقع ، لأن الدلائل لم تكن تدل عليه أو توحي به ، حيث كانت الروم قد بلغت مبلغاً عظيماً من الضعف ، وصل إلى حد أن غُزِيت في عُقْر دارها ، ولكن النصر

---

(١) الخروج : اصحاح ٢٠/٥ ، واصحاح ٣٤/٧ .

(٢) ستأتي تفصيلات لجوانب أخرى في فقرة تالية .

تَمَّ في بضع سنين كما ذكر القرآن(١) .

يضاف إلى ما سبق من وجوه الإعجاز ، ذلك المستوى الذي لا يقارب من حيث البلاغة والإعجاز البياني ، وهو المستوى الذي عجز العرب ، وهم فرسان الفصاحة ، عن مواجهته ، والإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو حتى بسورة واحدة من مثله ، ولقد كانت بلاغة القرآن تدهشهم ، وتصيبهم بالحيرة حتى لقد وصفوا القرآن بأنه سحر أو كالسحر لشدة تأثيره في نفوس سامعيه ، وقد كان تحدي القرآن لهم ، وتنزله في هذا التحدي جديراً بأن يستثير في نفوسهم كل طاقتها ، ولكنهم أسلموا إليه قيادهم ، واعترفوا له بأنه من مستوى يفوق إمكاناتهم و وأقروا بما يقوله القرآن من أنه كلام الله وليس من كلام بشر(٢) .

على أن مما ينبغي ملاحظته أن الإعجاز البياني ليس هو الوجه الوحيد

---

(١) انظر : د/ محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ، طبع ١٩٥٧ (دون بيانات أخرى) ص ٤٥ - ٤٧ وانظر به وجوها من الإعجاز في تعبير القرآن : بضع سنين . وانظر كذلك : تالبوت رايس : فارس وبيزنطة ، مقال ترجمه د/ محمد كفافي ، ونُشر ضمن : تراث فارس بإشراف آربري طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) عُنى علماء المسلمين قديماً وحديثاً بإبراز هذا الجانب من جوانب إعجاز القرآن ، وكان إثبات هذا الإعجاز من الموضوعات التي تناولها الكلاميون والبلاغيون والمفسرون ويمكن أن نشير في هذا المقام إلى ماكتبه الباقلاني عن إعجاز القرآن وكذلك ماكتبه الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (راجع : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق الأستاذ محمد خلف الله أحمد ود/ محمد زغلول سلام طبع دار المعارف ط ١٩٧٦/٣) ومن أفضل الكتب الحديثة التي تناولت هذا الموضوع كتاب د/ دراز المشار إليه في الهامش السابق ، وكتاب مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية

لإعجاز القرآن ، لأن القرآن لم ينزل إلى العرب وحدهم ، وإنما جاء بدعوة شاملة للعرب ولغيرهم ، ولذلك جعل الله فيه من أوْجُه الإعجاز المتعددة ما يجعله أهلاً لإثبات صفته الإلهية في كل العصور ، ومن أجل ذلك تتجدد أوجه الإعجاز وتتعدَّد ، لكي تتحقق له صفة الدوام ، بوصفه مصدراً لهذا الدين الخاتم الذي ختم الله به الرسالات . ولقد يساعد على تأكيد هذه الفكرة أن نشير - في إيجاز - إلى ما أصبح موضع العناية في العقود الأخيرة ، من حيث إبراز بعض الحقائق العلمية التي أشار القرآن إليها .

ولاشك أن تَضمُّن القرآن لبعض هذه الحقائق يدل على أن القرآن ليس من كلام بشر ؛ لأن هذه الحقائق لم تكن معلومة لأحد من الناس في عهد نزول القرآن ، لا من العرب ولا من غيرهم من الشعوب التي كانت تعد من أهل السبق على العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية وغيرها ، وبعضُ هذه الحقائق التي يتوصل الناس إليه إلا في عهد قريب ، فكيف - إذن - سبق القرآن إلى الإشارة إليها ؟ ! .

إن التفسير المقبول لذلك هو أن القرآن قد تضمَّن مثل هذه الحقائق لتدفع العقل البشري إلى بذل الجهد في معرفة ما أودعه الله في الكون والإنسان من الأسرار والمعارف والقوانين ، ومحاولة كشفها والانتفاع بها ، ثم لكي تكون حُجَجُه متجددة تكشف عن نفسها بتجدد الزمان ، وتقُّدم المعرفة البشرية لتوضح للعقل أن هذا القرآن تنزيلٌ من حكيم حميد .

ومن الأمثلة التي يمكن الإشارة إليها ، هنا ، ما جاء في الآيات الآتية :

﴿ فمن يُرِد اللّهُ أنْ يهديَه يَشْرحْ صدْره للإسلام ، ومن يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ

يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّدُ في السماء ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه ﴾ (الحجر : ٢٢) .

﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كلِّ شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون ﴾ (الذاريات : ٤٧-٤٩)

﴿ أوَ لم يرَ الذين كفروا أنَّ السموات والأرضَ كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ ، أفلا يؤمنون ﴾ (الأنبياء : ٣٠) .

﴿ سبحانَ الذي خلَق الأزواج كلَّها مما تُنبت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لايعلمون ، وآيةٌ لهم الليل نسلَخُ منه النهارَ فإذا هم مُظلمون ، والشمسُ تجري لمستقرٍّ لها ، ذلك تقديرُ العزيز العليم ، والقمرَ قدَّرناهُ منازلَ حتى عادَ كالعُرْجون القديم ، لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدرك القمر ، ولا الليل سابقُ النهار وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾ (يس : ٣٦ - ٤٠) .

﴿ .. يَخلقكمْ في بُطون أمهاتِكم خلْقاً من بعْد خلْقٍ في ظلمات ثلاث .. ﴾ (الزمر : ٦) » وهكذا وهكذا .

وإنه لمن اللافت للنظر أن القرآن الكريم قد وردت به إشارات كثيرة في موضوعات متنوعة ، فهي تتعلق ببدء الخلق ، وعلم الفلك ، وعلم الحيوان والنبات والإنسان ، وهي تقدم معلومات لم تكن معلومة في عصر نزول القرآن ، وهو عصر كان يمثل فترة من فترات الركود العلمي ، ولم يكن مستطاعاً للرسول أن يعرفها من أحد من معاصرين عرباً أو غير عرب ، وإنه

لمن المذهل كما يقول بوكاي أن هذه المعلومات مطابقة للمفاهيم التي نعرفها اليوم عن هذه الظواهر ، وإن ذلك ليدفع إلى التساؤل حول مصدر هذه المعلومات ، ويجيب بأن الأمر لا يحتاج إلى صعوبة في الإجابة « إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبير استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية ، فيما يخصُّ بعض الموضوعات »(١) .

وهذا وَجْه من وجوه الإعجاز لا ينبغي إغفاله ، مادامت قد تيسَّرتْ أسبابه ووسائله ، وإن كان الأخذ به يقتضي مزيداً من التثبت والحيطة ؛ حرصاً على القرآن الكريم نفسه من أن يُستَخْلَصَ من نصوصه ما لاتدل عليه ، أو أن يُفَسَّر فى ضوء اجتهادات ، لم تصل إلى الحد المقبول من اليقين العلمى ؛ لأن ذلك يضع أهل القرآن فى حرج ما كان أغناهم عنه ، خاصة وأن القرآن الكريم هو - فى المقام الأول - كتاب هداية وتشريع ، وأن ما جاء به فى هذا الصدد يعد من وجوه إعجازه ، ولا داعى - إذن - للحديث عما يسمى « بالإعجاز العلمى » لأدنى ملابسة ، كما يحدث فى بعض

(١) انظر : بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ، مرجع سابق ص ١٤٥ ، ١٤٦ ومابعدهما ، وانظر ١٥٠ ، وإنها لتزيد في بعض الأحيان عن ذلك .

الأحيان(١) .

ويمكن القول بأن العناصر السابقة - مجتمعة - تتضافر وتتكامل لرد القول الذى ذهب إليه جولدزيهر ببشرية القرآن ، وإن كانت بعض أقواله ، كما اشرنا إليها من قبل ، ما تزال تحتاج إلى مناقشة ، كما يتضح من الفقرات التالية .

٢ - تضمن كلام جولدزيهر - الذى نقلناه من قبل - اعتبار النسخ نوعاً من التطور ، الذى يرجع - فى رأيه - إلى ظروف نفسية تتعلق بالرسول ﷺ أو إلى ظروف اجتماعية تتعلق بالبيئة ، التى كانت تخضع ظروفها للتغير ، فهى فى المدينة غيرها فى مكة .

أ - وربما أوْحى كلامه - هنا - بأن النسخ ظاهرة انفرد بها الإسلام ،

---

(١) الاتجاه إلى تفسير القرآن بالمعارف العلمية قديم ، وربما كان من أشهر نماذجه لدى العلماء القدامى ماكتبه فخر الدين الرازي في تفسيره الذي وُصِف - مع مافي ذلك الوصف من مبالغة - بأنه فيه كل شئ إلا التفسير ، ويجري على هذه الطريقة نفسها : الشيخ طنطاوي جوهري بين المحدثين حيث يحشد في تفسيره للقرآن دراسات مطولة في علوم مختلفة تجعل قارئها يظن أنه يقرأ كتباً متخصصة في هذه العلوم ، لاكتاباً في تفسير القرآن انظر د/ محمد حسين الذهبي ، التفسير والمفسرون ، مكتبة وهبة ط ١٩٨٥/٣ جـ ٤٨١/٢ - ٤٩٦ .

وقد شاع في العقود الأخيرة العناية بهذا الأمر من وجهة نظر إثبات الإعجاز ، وأصبحت تُعْقَدُ له المؤتمرات في تخصصات مختلفة ، ولابأس بذلك إذا جمعت هذه المؤتمرات بين الحذر اللائق بالقرآن ، واليقين اللائق بالعلم ، وسوف يكون هذا الاتجاه أعظم جدوى إذا دفع المسلمين إلى أن يكتشفوا بأنفسهم تلك الحقائق التي تضمنها القرآن ، بَدَلاً من أن يقوم غيرهم ممن لاينتسبون إلى القرآن بذلك !!

مع أن النسخ قد وقع فى الشرائع السابقة ، وكان وقوعه ما بين شريعة وشريعة أحياناً ، وكان وقوعه فى الشريعة نفسها أحياناً أخرى .

ومن نماذج النوع **الأول** أنه كان مباحاً فى شريعة يعقوب أن يجمع الرجل بين الأختين ، ثم حرَّم ذلك فى شريعة موسى وفى الإسلام ، وكان العمل يوم السبت محرماً فى شريعة موسى ثم أُحِلَّ فى شريعة عيسى عليه السلام وفى الإسلام ، ولم يكن زواج الأخ من أخته محرماً بين ابناء آدم ولكنه حرم من بعدهم ، وقد أحل الله لنوح بعد الطوفان أن يأكل من الدواب دون تحريم ، ثم حرم بعضها فى الشرائع اللاحقة ، وهذا كله نوع من النسخ وهكذا[1] .

ومن نماذج النوع **الثانى** أن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح ولده ثم عفا عنهما ونسخ هذا الأمر ، وتذكر التوراة أن الله قد وعد بنى اسرائيل على لسان موسى أن يعطيهم أرض كنعان ، بعد إخراجهم من مصر التى كانوا مستذلين فيها ، لكنهم تمردوا على الله حتى وصفهم بأنهم شعب صلب الرقبة ، وتكرر هذا التذمر والتمرد مراراً كثيرة ، بسبب القحط الذى عانوا منه فى سيناء ، وبسبب أمرهم بالقتال لدخول أرض كنعان ، فغضب الله عليهم ، لعدم استجابتهم لأمره ، وقال لهم إنه سيضربهم بالوباء ، لكن موسى

---

(١) انظر مثلاً : القاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، تحقيق د/ عبد الكريم العثمان . مكتبة وهبه ط ١٩٦٥/١ ص ٥٧٩ ، وسيف الدين الآمدي : الاحكام في أصول الأحكام ، تحقيق الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، المكتب الإسلامي - بيروت ط ١٤٠٢/٢ هـ ، جـ ١١٧/٣ ، ١١٨ وانظر مثلاً فيما يتعلق بنوح : سفر التكوين اصحاح ٣/٩ وفيما يتعلق بيعقوب تذكر التوراة أنه هو نفسه تزوج أختين انظر سفر التكوين ١٦/٢٩ ومابعدها خاصة الفقرات : ٢٣ - ٣٠ .

رجاه أن يصفح عنهم ، وأن يدفع الوباء عنهم ، فقَبِل رجاءه ، لكنه ذكر لموسى أن هؤلاء الذين رأوا آياته ثم لم يسارعوا إلى تنفيذ أمره بمحاربة عدوهم لن يروا هذه الأرض التى وعدهم إياها ، ثم عاد الرب فجعل ذلك من نصيب أبنائهم ، أما الكبار منهم فيرعون فى القفر أربعين سنة ثم يموتون دون أن يدخلوها ، وعلى الرغم من هذا الوعيد الشديد ، والبلاء المهلك تذمروا بعد ذلك ، فأخذهم الله بالوباء ، ثم صفح عنهم بعد رجاء موسى وهارون ، ثم عادوا إلى طبيعتهم المتمردة ، فقتلهم الله بالعقارب والحيات ، ثم تاب عليهم ، وهكذا[1] وهذا كله نوع من النسخ وإن لم يُسَمَّ باسمه ، فالوعد كان لهم – بحسب زعمهم – أولاً ، ثم حرمهم الله منه ثانياً ، ثم جعله لذريتهم ثالثاً . والله قد تهددهم بالفناء بسبب عصيانهم ، ثم عفا عنهم ، وتكرر ذلك مرات متعددة لم يطبَّق فيها ما نسبوه إلى الله تعالى من وعد أو وعيد .

وأما فى شريعة عيسى فلقد أحل الله له فيها بعض ما حرم فى شريعة موسى ، وكره عيسى بعض ما كان مباحاً فى شريعة موسى[2] وقد وقع فى شريعته ما يدل على وقوع النسخ ، فقد أعلن أنه لم يُرسَلْ إلا إلى خراف بيت

---

(١) انظر في وعد الله لهم : الخروج اصحاح ٦ ، ٣٣ ، ٣٤ وانظر في تذمرهم المتكرر : الخروج : اصحاح ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٣٣ والعدد : ٢١ وانظر في تقاعسهم عن تنفيذ أمر الله لهم بالقتال ، وماترتب على ذلك من حرمان لهم عامة ، ثم ماآل إليه الأمر من حرمان الكبار منهم خاصة : العدد : اصحاح ١٤ ثم في ضرب الله لهم بالوباء والحيات وعفوه عنهم : العدد : اصحاح ١٦ ، ٢١ ويمكن استخراج نماذج كثيرة من مواطن أخرى من التوراة .

(٢) انظر : انجيل متى : الاصحاح الخامس في مواضع متفرقة ، وكذا في اصحاحيْ ٦ ، ٧ وانظر كذلك اصحاح ٩ فيما يتعلق بتحريمه للطلاق الذي أباحته شريعة موسى .

إسرائيل الضالة ، ثم نُسِب إليه أنه دعا إلى البشارة برسالته فى كل العالم(١) .

ولم ينته التشريع في المسيحية بعد المسيح عليه السلام ، وإنما هو متجدد ، وقد كان لبولس شأن كبير في ذلك ، وقد وصف نفسه بأنه يتمم كلمة الله ، وبأن أموره آلت إلى تقدم الإنجيل ، وليس غريباً - والأمر عنده كذلك - أن يقوم بالتشريع بنفسه ، وأن يعطي رأيه في مسائل التشريع بما لم يُسْبَق إليه(٢) ، وقد نظر إلى بعض مسائل التشريع كالختان نظرة رمزية روحية تجعل الالتزام بها أمراً غير ضروري ، لأن العبرة ليست بالشكل بل بالمضمون(٣) وقد فهم ما وعد الله به إبراهيم ونسله على هذا النحو أيضاً(٤) .

ثم يستمر التشريع متمثلاً في الكنيسة التي ينظر أتباعها إليها على أنها وارثة لمجد الله ، وأنها الوحيدة المؤهلة - برئيسها وهو البابا وبمؤسساتها - لتشريع القوانين الروحية للإنسان ، وأنها تؤدي في هذا المجال ما تؤديه الدولة للإنسان في المجال المادي الزمني(٥) .

وليس النسخ - إذن - أمراً مقصوراً على الإسلام وحده ، بل إنه ظاهرة

---

(١) انظر مثلاً : متى اصحاح ١٥/٢٢ - ٢٨ وقارن متى اصحاح ١٣/٢٦ ، واصحاح ١٩/٢٨ ، ٢٠ .

(٢) انظر مثلاً : رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ، اصحاح ١٣/٧ ومابعدها .

(٣) انظر رسالة بولس إلى أهل رومية اصحاح ٢/٢٥ - ٢٩ واصحاح ٤/٩ - ١٢ .

(٤) السابق ، اصحاح ٤/١٣ - ٢٥ .

(٥) انظر Jean des Graviers, : Le Drois Canonique, P.U.F. 1967 . pp 8, 9 et p. 28 et suit ...

معروفة في غيره من الشرائع الأخرى[1] .

ب – ثم إن النسخ – في الشريعة الإسلامية – ليس أمراً مطلقاً ، بل يحيط به عدد من القيود والضوابط التي تجعل مجاله محدوداً جداً ، فالنسخ لا يقع في العقائد ، ولا في الأخبار التي هي كثيرة الورود في القرآن[2] . ثم أنه لا يقع في أصول الشريعة ولا في قواعدها الكلية ، وإنما يقع في الجزئيات وفروع الأحكام[3] وإذا قورن ما وقع فيه النسخ بالمحكَم الذي لم يتغير حكمه فإن الأول منهما لا يكاد يذكر ، فهو قليل جداً بالقياس إلى الثاني ، ويتضح هذا إذا علمنا أن بعض العلماء يرى أن النسخ لم يقع إلا في إحدى وعشرين آية ، بل ذهب بعضهم إلى أنه لم يقع إلا في عشر آيات فقط[4] وهو عدد لا يقارن بآيات القرآن التي تزيد على ستة آلاف آية .

وقد جاء النسخ في أكثر هذه الآيات متسقاً مع إحدى خصائص

---

(١) انظر د/ زاهر عواض الألمعي في كتابه : مناهج الجدل في القرآن الكريم مطابع الفرزدق – الرياض ، دون تاريخ حيث يورد عشر مسائل جرى فيها النسخ في التوراة والإنجيل انظر ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ .

(٢) انظر الشوكاني : ارشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، دار المعرفة لبنان ، دون تاريخ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣) انظر : الشاطبي : الموافقات ، تحقيق الشيخ عبد الله دراز ، المكتبة التجارية الكبرى ٣/١٠٤ ، ١٠٥ .

(٤) انظر : جلال الدين السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ جـ ٧٦/٣ ، ٧٧ وكذا د/ صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ط ١٠/١٩٧٧ ص ٢٧٤ .

التشريع الإسلامي ، وهى التدرج في تشريع الأحكام ، تيسيراً على الناس ، ورفقاً بهم . وينطبق ذلك على تحريم الخمر والربا ، كما أنه يوضح رحمة الله تعالى بعباده ، ورفع الحرج عنهم ، وذلك حين يخفف بعض ما في الأحكام من عُسْرٍ ومشقة ، وينطبق ذلك على تخفيف الله عن المقاتلين في أول الإسلام ، حيث كانوا مطالبين بضرورة الثبات لعشرة أمثالهم من المشركين ، ثم خفف الله الحكم ، رحمة بهم ، فجعل الثبات لازما أمام ضِعْفِهم فحسب[1] ، ويشبه هذا ما تجاوز الله تعالى مما كان قد ألزم به المسلمين إذا ناجوا الرسول عليه السلام حيث كان واجباً عليهم تقديم صدقة ، ثم اسقط الله عنهم ذلك[2] .

جـ - ثم يبقى بعد ذلك كله أن النسخ - على قِلَّته - كان جائز الوقوع في حياة الرسول ﷺ ، لأنه هو الذي يتلقى الإذن به من الله تعالى ، فهو لا يُحِل أو يُحَرِم بهوي نفسه ، بل بأمر ربه وإذنه ورضاه .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لِتحكُمَ بين الناس بما أراكَ الله ﴾ (النساء : ١٠٥) .

﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وَحْىٌ يوحي ﴾ (النجم : ٣ ، ٤) .

فلما انتقل الرسول ﷺ إلى ربه أُغلِق باب النسخ ، لأنه لا يتم إلا بوحي ، ومادام الوحي قد انقطع فإن مجال النسخ ينقطع كذلك . ولايملك أحد في الإسلام أن ينسخ أحكام الشريعة ، حتى ولو كانت الأمة كلها ، لأن

(١) راجع آيتي ٦٥ ، ٦٦ من سورة الأنفال .

(٢) راجع آيتي ١٢ ، ١٣ من سورة المجادلة .

ذلك إلى الله وحده أصلاً ، ولرسوله تبعاً ، أما من سواهما فانه مطالب باتباع أمرهما ، والالتزام بشرعهما .

﴿ وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمْراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ، ومَنْ يعْصِ اللَّه ورسولَه فقد ضَلَّ ضلالاً مبيناً ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

ولقد عاب القرآن الكريم على أهل الكتاب أنهم ارتضوا أن يكون لأحبارهم ورهبانهم حق التغيير والتبديل لحكم الله ، وجعل ذلك نوعاً من إضفاء الربوبية عليهم .

﴿ اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ بن مريم ﴾ (التوبة : ٣١) .

وقد فسر الرسول ﷺ وذلك بأنهم « حرَّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم »[١] وليس هذا إلا صورة من صور النسخ ، الذي لا يصح وقوعه – في الإسلام – إلا لله ولرسوله بإذنه .

٣ – ذهب جولد زيهر إلى أن الرسول ﷺ استقى كثيراً من معلوماته التي أودعها في القرآن من اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الحضارات الأخرى .

وهذه دعوى رائجة لدى كثير من المستشرقين الذين يتلمسون لها تعضيداً فيما يجمعونه من أشتات الأخبار عن بحيرا الراهب وورقة بن نوفل ،

(١) تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٧٧/٤ .

وعن بعض الذين أسلموا ممن كانوا على علم بكتب أهل الكتاب أو بدينهم كبلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي وعبد الله بن سلام وأمثالهم[1] .

ويمكن لنا أن ننظر إلى هذه الدعوى على ضوء الملاحظات الآتية :

أ - أن الرسول لو تعلمً من هؤلاء شيئاً لما آمنوا به ، ولّمَا دخلوا في دينه ، ليكونوا أتباعاً بدل أن يكونوا متبوعين ، ولكان لهم عليه من السلطان ما يجعله خاضعاً لهم ، ثم إنه كان من الممكن لهؤلاء أن يفضحوا ستره ، ويكشفوا سره ، ويُعَرِّفوا الناس بمصدر هذا العلم الذي يأتيهم به ، ولكن هؤلاء كانوا - كأمثالهم من الصحابة - يُجِلُّون النبي ﷺ ويعظمونه ويحبونه حباً عظيماً ، ويعرفون له قدره ، ويتعلمون منه ما لم يكن لهم به علم ، وإنه لعجيب أن ينسب هؤلاء علمهم إلى رجل غيرهم ، ثم يكونوا له أتباعاً بدل أن يكونوا اساتذة متبوعين[2] ولقد كان بعض هؤلاء يعمل في مهن مُتَدنِّية أحياناً ، فبعضهم كان حداداً أو عاملاً في حانة ، وكان بعضهم من العبيد الذي كانوا - بحسب وضعهم الاجتماعي - بعيدين عن العلم والثقافة ، لانشغالهم بخدمة سادتهم ، ولقد وجد هؤلاء في دعوة الرسول ﷺ فرصة للنجاة مماهم فيه من الظلم والقهر ، ولذلك دخلوا في الإسلام ليستظلوا بعدله على الرغم مما نالهم من الأذى .

---

(١) انظر مقالة د/ التهامي النقرة : القرآن والمستشرقون ، نشرت بكتاب : مناهج المستشرقين ، طبع مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض ١٩٨٥ هـ ١/٣٧ ، ٣٨ .

(٢) انظر ماسبق عند الحديث عن دعوى المشركين أن الرسول يعلمه بشر وانظر المرجع السابق ١/٣٥

ب - أن الرسول ﷺ يُوصَف في القرآن بأنه ما كان يقرأ كتاباً ولا يخطه بيمينه ، وهو كلام قيل في مواجهة المشركين وغيرهم ، ولقد كانت توجد إلى جانب ذلك عقبة يصعب تذليلها حتى بالنسبة إلى من يقرأ ويكتب لأنه لم يكن يوجد في ذلك الوقت ترجمات للتوراة أو الإنجيل باللغة العربية ، ويذكر بعض المستشرقين أنفسهم أن الكتاب المقدس لم يظهر باللغة العربية إلا بعد ذلك بقرون عديدة ، ولم تكن الحاجة ملحة لذلك إلا في القرن التاسع والعاشر أي بعد قرنين أو أكثر من الزمان(١) .

جـ - أن من أكبر ما ينقض دعوى تعلم الرسول ﷺ من اليهود والنصارى أن ما جاء في القرآن مخالف لما هو معروف ، بل لما هو مقدس عندهم في مسائل كثيرة . ولقد واجههم القرآن مواجهة صريحة بأن كتبهم محرفة .

وينطبق ذلك على اليهود الذين قال القرآن عنهم :

﴿ أفتطمعُون أن يُؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يُحَرِّفونه من بعد ماعقلُوه وهم يعلمون .. فويْلٌ للذين يكتبُونَ الكتابَ بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله ليَشْتروا به ثَمناً قليلاً ، فويلٌ لهم ممَّا

(١) انظر : د/ محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن ، طبع دار القلم - الكويت ط ١٩٨١/٣ ص ١٤٠ ، ١٤١ وانظر كذلك : د/ محمد مصطفى الأعظمي : دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه طبعة الرياض ١٤٠١/١٩٨١ حـ ٤٥/١ ، ٤٦ ، وانظر كذلك ٧١٨/٢ وقارن الفهرست لابن النديم طبع بيروت ، ٣٢ - ٣٤ عند حديثه عن عبد الله بن أحمد بن سلام مولى هارون الرشيد .

كتبتْ أيديهم ، وويْلٌ لهم مما يكسبون ﴾ (البقرة : ٧٥ ، ٧٩)(١)..

وقد رفض القرآن دعواهم أنهم أولياء الله وأحباؤه ، وتحداهم بأن يطلبوا الموت إن كانوا صادقين(٢) وقد وصفهم القرآن بالتهجم على الله ، وقتل الأنبياء ، والصد عن سبيل الله ، والتهرب من تطبيق شريعته ، والمسارعة إلى الوقوع في العدوان والظلم والإثم ، واستحقوا - - لذلك كله - اللعنة من الله تعالى . وقد تتبع القرآن أخبارهم ، وكشف عن دخائل نفوسهم في كثير من سوره(٣) .

ولم يكن فيما ذكره القرآن عنهم تجنٍّ عليهم ، فالتوراة التي بأيدي الناس تنسب إلى الله عز وجل وإلى رسله ما لا يليق :

فالله - تعالى - يوصف في التوراه بأن له أولاداً من الذكور ، وأنهم تزوجوا من بنات الآدميين(٤) وبأن الله أخرج آدم من الجنة لأنه لما أكل من الشجرة « صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ، ويأكل ويحيا إلى الأبد »(٥) ثم يوصف بأنه ندم على خلقه لآدم بعد وقوع الصراع بين ابنيه وكثرة شروره في الأرض « فحزن الرب

---

(١) انظر الآية ١٣ ، ٤١ من سورة المائدة .

(٢) انظر الآية ٩٤ ، ٩٥ من سورة البقرة ، والآية ٦ ، ٧ من سورة الجمعة ، والآية ١٨ من سورة المائدة

(٣) انظر مثلاً الآيات : ٩١ - ٩٨ من البقرة ، ١٨١ - ١٨٣ آل عمران ، ١٥٣ - ١٦١ من النساء ، ٥٩ - ٦٤ ثم ٧٠ ، ٧١ ثم ٧٨ - ٨٢ من المائدة ومواضع أخرى كثيرة من القرآن .

(٤) التكوين : اصحاح ٦/١ - ٦ .

(٥) التكوين : اصحاح ٣/٢٢ .

أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه »[1] .

بل يوصف الله تعالى بأنه يصارع يعقوب عليه السلام ليلة بأكملها إلى الصباح ، دون أن يستطيع التغلب عليه ، ولم يتركه يعقوب إلا بعد أن باركه[2] ثم يصور اليهود ربهم بأنه كان يبكي وين كما ويئن الحمامة ، بعد خراب بيت المقدس ، ويدعو على نفسه بالويل ، بسبب تخريب بيته وتفريق أبنائه[3] .

ولا يقل وصف التوراة للأنبياء شناعة وجراءة عن هذه الأوصاف ، حتى لقد اتهموهم بالزنا الذي يصل إلى قمة الفحش في الزنا بالبنات[4] وبالمعاونة على الشرك أو عبادة الأوثان متمثلاً وصفوا هارون بأنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل أثناء غيبة موسى ، وترد في التوراة نماذج أخرى كثيرة لا يحتاج المرء إزاءها إلى كبير عناء ليدرك مخالفتها لما جاء به القرآن عن الله تعالى وأنبيائه من إجلال وتوقير وكمال .

ولا يفترق الأمر في الحديث عن النصارى الذين وصفهم القرآن بالإنحراف عن عقيدة التوحيد ، حين وصفوا عيسى بأنه الإله ، أو بأنه ثالث ثلاثة ، وحين نفوا عنه صفة البشرية والعبودية لله تعالى ، كما رفض القرآن الإدعاء بأنه قد صُلِبَ ، وبيَّن أن ذلك أمر قدْ شُبِّهَ عليهم ، وقد وردت في ذلك

---

(١) التكوين : ٦/٦

(٢) انظر التكوين ٣٢/٢٥ – ٣٠ .

(٣) انظر نماذج لذلك في الفصل لابن حزم طبع المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ انظر ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ وانظر نماذج أخرى به ١٦٠/١ ، ١٦١ ، ٢٢١ .

(٤) انظر التكوين ١٩/٣٠ – ٣٩ .

آيات كثيرة[1] .

ويرد التساؤل هنا : إذا كان محمد ﷺ قد تعلم ما في القرآن من اليهود والنصارى ، فهل كان يجرؤ على مخالفتهم ، وهل كان يمكن أن يتحدث عن لعن الله لبعضهم ، وتكفيره للبعض الآخر بسبب ما وقعوا فيه من تحريف للعقائد التي جاء بها الأنبياء إليهم ؟ ! ومن أين جاء بهذه العقائد المخالفة مخالفة جذرية في كثير من الأحيان لما هو معروف عند اليهود والنصارى .

ولم تكن علاقة الرسول ﷺ باليهود لِتَسْمح له بأن يأخذ عنهم أو يتعلم منهم ، لأنها علاقات كانت مشوبة بالتوتر الذي تطور إلى حروب انتهت - فيما بعد - إلى إجلائهم من شبه الجزيرة العربية كلها ، أما المسيحية فقد وقعت نهباً للخلافات القاسية التي كانت تدور حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام ، وعلاقة اللاهوت بالناسوت فيه ، ثم علاقته بالأب وروح القدس ، وشمل هذا الخلافُ الكنيسةَ الشرقية والغربية وكانت المسيحية كما يقول بعض كبار دارسيها من الغربيين مطمورة وراء ركام من الخرافات المنفرة ، والوثنية المنحطة ، والمذاهب الكنسية المغرورة [2] .

ولو تعلم الرسول على أيدي هؤلاء لجاء كلامه مثل كلامهم ، ولما جَرُأ على مخالفتهم ، بل وحربهم وهزيمتهم .

وينطبق هذا على المشركين الذين ظهر الرسول ﷺ بينهم ، وقد

(١) انظر مثلاً : آل عمران ٤٥ - ٦٣ ، النساء ١٧١ ، ١٧٢ ، والمائدة : ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٧٢ - ٧٧ ومريم ٣٠ - ٣٦ ، ٨٨ - ٩٥ ومواطن أخرى .

(٢) انظر د/ دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ، مرجع سابق ١٣٦ - ١٣٨ .

اعترفوا – هم أنفسهم – بأنه سفّه عقائدهم ، وسبّ آلهتهم ، وخالف تراثهم وتقاليدهم ، ثم حاربهم وانتصر عليهم ، وآل أمرهم في النهاية إلى الدخول في الإسلام ، بعد أن بهرهم القرآن بإعجازه وسمو عقائده ، وكمال تشريعه .

أما يقال من أن الرسول قد تأثر بهم فلعل المقصود به بعض ماتضمنه الإسلام من تشريعات تشبه ماكان لدى العرب قبل الإسلام كتعظيم البيت الحرام بمكة ، والحج إليه ، وتعظيم الأشهر الحرم ، وتحريم القتال فيها .

ولم يكن العرب هم الذين شرعوا هذه الأمور ، وإنما ورثوها عن دين إبراهيم عليه السلام ، الذي يرتبط العرب به عن طريق إسماعيل عليه السلام ، وقد جاء الإسلام ليعلن أنه امتداد للدين الحنيفي الذي جاء به إبراهيم(١) .

ثم إن الإسلام لم يُبْقِ هذه التشريعات على ما آل إليه أمرها في الجاهلية ، بل إنه صبغها بالصبغة الإسلامية التي تجعلها عبادة خالصة لله ، وتجردها من التحريف ومظاهر الاستعلاء (٢) التي جعلها بعض أهل مكة لأنفسهم ، ثم لما دخل الرسول ﷺ مكة طهّر البيت الحرام من الأوثان ، والأصنام التي كانت فيه ، لأنه قد جاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

وهكذا يتضح مأتتّسم به دعاوي التأثّر من مبالغة ، تؤدي إلى الحكم

(١) انظر مثلاً : الآيات ١٢٧ – ١٣١ من البقرة ، ٦٥ – ٦٨ من آل عمران ، ١٢٠ – ١٢٣ من النحل ، ٧٨ من سورة الحج وهكذا .

(٢) من مثل طواف بعضهم عراة ، وإفاضة بعضهم عن مكان خاص ، فأمرهم الله بأن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، وهكذا . انظر الآيات : ١٥٨ ، ١٩٨ – ٢٠٣ من البقرة ، ٢٨ – ٣٣ من الأعراف .

بوقوعه لأدنى ملابسة ، أو مشابهة ، مع أن الأمر ليس على هذا النحو من التساهل أو التبسيط .

٤ – يوصف القرآن – لدى جولد زيهر – بأنه كان عاجزاً عن مواجهة عقلية الإسلام التاريخية ، وبأنه لم يحكُم الإسلامَ إلا في السنوات العشرين الأولى من نموِّه ، ومن ثم لايصح أن يُنْسَب إليه الأثر الأعظم في تحديد طابع الإسلام بوجه عام .

ويمكن القول بأن في هذا القول نوعاً من الإبهام في تحديد المقصود بالإسلام .

فالإسلام قد يُراد به هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ بما يتضمنه من عقائد وأخلاق وتشريعات ، وقد يُرَاد به مايعادل مصطلح الحضارة الإسلامية الذي يستخدم في مجال التاريخ والحضارة .

فإذا أردنا بالإسلام معناه الأول فإن هذه الأحكام التي ذُكرت لاتُعدُّ صحيحة ؛ لأن القرآن (١) هو صاحب الأثر الجوهري الأصيل في بناء مضمون الإسلام بهذا المعنى ؛ فالعقائد والأخلاق وأصول الأحكام – بل وبعض فروعها – مدوَّنة في القرآن ، بحيث يجب الرجوع إليه في بيانها وتكييف طبيعتها ، وتحديد خصائصها ، ومعرفه أحكامها . والعدولُ عن ذلك خطأ منهجي من المنطلق الإسلامي الصحيح ؛ لأن ماجاء في القرآن – وكذا السنة – حجة على كل فهم أو منهج سواه ، وهو – بحسب الأصول الإسلامية

(١) وللسنة النبوية دورها كذلك ، حيث تأتي شارحة ومبينة ومفصلة لما تضمنه القرآن وقد تأتي مؤسِّسة لأحكام تستقل بها ، ويمكن الرجوع إلى تفصيل هذه المسألة في كتب أصول الفقة في علاقة السنة بالقرآن .

الصحيحة – مردود على أصحابه ، استناداً إلى قول الرسول ﷺ « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ » (١) .

ومعنى ذلك أن ماجاء في القرآن من أمور العقيدة يُعَدُّ حجة على ماتوصلَّ إليه – من بَعْدُ – علماء الكلام والفلاسفة والصوفية وغيرهم ، وماجاء فيه من أصول الأحكام يُعَدّ حجة على المجتهدين من الفقهاء في كل عصر (٢) وأن ماجاء من هذه الاجتهادات مخالفاً لأحكام الشريعة فإنه ينسب إلى أصحابه لا إلى الإسلام . وتأثيرُ القرآن – إذن – في هذا المجال ليس محدوداً بعقدين من الزمان كما يقول جولد زيهر ؛ بل إنه تأثير جوهري مستمر ، لا يمكن تجاهُلُه مادمنا نتحدث عن الإسلام .

أما استخدام الإسلام معادلاً لمصطلح الحضارة الإسلامية فإنه يجعله أوسع مدلولاً ، وأشمل مجالاً وميداناً ، وهو – يتسع بهذا المعنى – لبعض المؤثرات الخارجية التي كان لها دور في الحضارة الإسلامية ، عن طريق **الاقتباس** من بعض الأنظمة السابقة كتدوين الدواوين الذي أخذه المسلمون عن الفرس ، أو عن طريق **ترجمة** العلوم من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية ، وهي حركة واسعة شاملة ، شارك فيها النصارى والصابئة وغيرهم ، بقسط كبير . ويمكن لكلام جولد زيهر أن ينطبق على هذا المجال ، حيث ظهرت فيه بعض المؤثرات التي ينبغي الاعتراف بها ، وعدم انكارها .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فاخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود ٢٦٨/٤ .

(٢) سيأتي بعد قليل مايؤكد هذا المعنى .

غير أن تمث ملاحظات يمكن الاشارة إليها - في إيجاز - على النحو التالي :

أ - أن هذا التأثير قد جاء في نطاق الشئون والأمور الدنيوية سواء أكانت نُظُماً أم علوماً ، ولم يجد المسلمون حرجاً في الإفادة من ثمرات العقل البشري في هذا المجال ، مادام جانب المصلحة ظاهراً فيه ، ومادام التعارض بينه وبين الشرع منتفياً ، وقد كان مأذوناً لهم من الشرع ، بل كانوا مأمورين منه - بالبحث عن مصالحهم ، وإزالة الضرر عنهم لأنه « لاضرر ولاضرار »[1] ثم كان الشرع قد أتاح لهم الحرية أن يجتهدوا في معرفة أمور دنياهم مما ليس فيها حكم شرعي[2] .

ب - أن هذا التأثير لم يكن ليتم لولا السماحة الفكرية التي يتصف بها الإسلام ، فلقد كانت كثير من العلوم مضطهدة ، مطاردة محبوسة قبل الإسلام ، بسبب خوف أصحابها على عقائدهم منها ، ثم كان للإسلام فضل إخراجها إلى النور ، وتهيئة الظروف العلمية الثقافية للانتفاع بها ، وهذا مما يتميز به الإسلام على غيره ، وهذا مايشير إليه أبو الحسن العامري - أحد رجال مدرسة الكندي (٣٨١ هـ) في قوله : « ولو أنه كان لأهل الأديان مثل هذه السعة في المعارف ، والبسطة في المعالم ، لوُجدتْ كتبهم مُبْرزَةً في أيديهم ، ولَماَ خفى خبرها على المتعرفين لأحوالها ، ولَماَ جهل مخالفوها

---

(١) انظر مسند أحمد ٣٢٧/٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ، تحقيق عبد الله أبو زينة طبعة الشعب . كتاب الفضائل ٢١٢/٥ ، ٢١٣ .

اسماءها ، وماشتملت عليه من مضمونها .... »(١) . ولم يغب عن باله مايمكن أن يُعترض به عليه من أن حركة الترجمة قد قامت على أكتاف غير المسلمين ، وقد أجاب على ذلك بقوله « فإنهم مافعلوا ذلك إلا لما شاهدوه من قوة الإسلام وشرفه ، وماكان قصدهم إلا التقرب إلى الخلفاء الضابطين لِعُرَى الإسلام وقواعده »(٢) .

جـ - أن المسلمين - وعلماء السنة منهم على وجه الخصوص - قد وقفوا في وجه بعض ماانتقل إليهم ، عندما وجدوه معارضاً للشريعة . وكان من هذا الباب معارضتهم للفلسفة ، وخاصة في مجال الإلهيات ، التي جاءت فيها أكثر أغاليطهم كما يقول الغزالي (٣) ، بل كان من هذا الباب معارضتهم لعلم الكلام ، على الرغم من الغاية الدينية التي نشأ من أجلها ، وتتمثل في الدفاع عن العقيدة ضد خصومها بمنهج عقلي ، ومع ذلك لم يَسْلم من الهجوم عليه ، بسبب تأثره بالفلسفة في بعض أدلته ، وبعض مقدماته ومصطلحاته ، وكان لمفهوم البدعة والسنة دخل في تحديد مايُقبَل وما لا يقبل مما هو طارئ على البيئة الإسلامية ، ووقف بعض مفكري الإسلام يدافعون عن فكرة الأصالة والتميز ، ويرفضون موقف الاستسلام أمام ماهو طارئ ، ويتحدثون - كما فعل ابن تيمية مثلاً - عن أن من مقتضيات الصراط المستقيم مخالفة

---

(١) أبو الحسن العامري : الإعلام بمناقب الإسلام ، تحقيق د/ أحمد عبد الحميد غراب دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ط ١٩٦٧/١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) السابق : ١٨٣ .

(٣) أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود (مع أبحاث في التصوف) دار الكتب الحديثة ط ١٩٧٢/٧ ص ١٤٣ .

أصحاب الجحيم ، ولم يكن الأمر عنده متعلقاً بأمور العقيدة لأن ذلك مما لاخلاف عليه ، ولكنه كان متعلقاً ببعض الظواهر الاجتماعية والحضارية التي كان يُخْشى على المسلمين منها .

د - أنه - فيما يتعلق بالجانب الثقافي أو حركة الترجمة - ينبغي أن يكون واضحاً أن هذه الحركة لم تكن هي التي أنشأت حركة العلم أو الفكر عند المسلمين ؛ لأن هذه الحركة قد نشأت لدى المسلمين قبل الترجمة ، وأنها انبعثت لديهم بدوافع دينية ، جعلتهم يتجهون إلى تأسيس وإنشاء عدد من العلوم الدينية والعربية ، حرصاً على القرآن الكريم والسنة النبوية واللغة العربية ، التي هي لغة القرآن والسنة ، وعندما نقلت العلوم المترجمة كانت علوم المسلمين المتعددة واضحة المعالم ، زاخرة بجهود عدد كبير من العلماء الأعلام . وربما يتسع المجال في فرصة أخرى لتوضيح هذه المسألة توضيحاً أوفى ، إن شاء الله .

وكل ما نبتغيه هنا هو التأكيد على تحديد مفهوم الإسلام ، ثم تحديد نطاق وحجم التأثر الذي سرى إلى الحضارة الإسلامية ، حتى لايلتبس ما يمكن نسبته إلى الإسلام الذي هو حضارة ، بما لايصح نسبته إلى الإسلام الذي هو دين .

ه - وهناك نوع آخر من الإبهام ، يتعلق بالاجتهاد الذي ذهب جولد زيهر إلى أنه كان ضرورة لسد النقص الذي يلْحقه بالقرآن ، وخاصة عند ماخرج الإسلام من شبه الجزيرة العربية وتأهَّب لكي يصير قوة دولية (١) .

---

(١) انظر : العقيدة والشريعة ... ص ٤١ .

ومن المقرر – عند الصحابة ، وهم أسبقُ المسلمين إلى الاجتهاد – أن الشريعة كاملة ، وأن الدين تام لا نقصان فيه ، وأنهم لايحتاجون إلى دين غيره ، وأن الحلال ماأحله ، والحرام ماحرمه ، وأن ماأخبر به فهو حق وصدق لاكذب فيه ولاخُلف وقد كان هذا بعض مافهموه من قوله تعالى :

﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١) . (المائدة : ٣)

وكان قائلهم كأبي ذر يقول : « لقد تركَنَا محمدٌ ﷺ ومايحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً » (٢) .

وكان الصحابة يزدهون بذلك على المشركين ، ويبينون لهم أن الرسول قد علمهم كل شئ حتى كيفية الاستنجاء ، وأنه لن يمنعهم من ذلك إنكار المنكرين أو سخرية الساخرين (٣) .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أذن لهم بالاجتهاد في حضرته ، أو بعيداً عنه في اليمن وغيرها فليس معنى ذلك أن يكون اجتهادهم شريعة تكون في مستوى النصوص الشرعية ، بل إنها لاتزيد عن كونها فهماً لهذه النصوص ، ولذلك كانت محكومة بها ، تابعة لها ، وكان العلم بها ضرورياً للاجتهاد ، وفي ذلك يقول ابن عبد البر – بعد أن روى بعض أقوال الصحابة – « هذا يوضح لك أن الاجتهاد لايكون إلا على أصول ، وأنه لايجتهد عالم إلا

---

(١) انظر ماقاله ابن عباس في تفسيره لهذه الآية : تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٢٣/٣ .

(٢) مسند أحمد ١٥٣/٥ .

(٣) مسند أحمد ٤٣٧/٥ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

بها ، ومن أشكل عليه شئ لزمه الوقوف ، ولم يجز له أن يحيل على الله قولاً في دينه ، **لانظير له من أصل ، ولاهو في معنى أصل** ، وهو الذي لاخلاف عليه ، بين أئمة الأمصار ، قديماً وحديثاً » (١) .

فإذا خالفت الاجتهادات هذه النصوص فلاقيمة لها ، بل تكون مهدرة ، ويعلن المجتهدون أنفسُهم ذلك ، فيقول أحدهم : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، ويقول غيره : إذا خالف الحديث قولي فاضربوا بقولي عُرْض الحائط (٢) هَرَباً من الافتراء على الله أو منازعته حق التشريع الذي هو من شأنه .

﴿ ولاتقولوا لما تَصفُ أَلْسِنتكُمُ الكذِبَ هذا حلال ، وهذا حرام لِتفْتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ﴾ (النحل : ١١٦).

بل هربا من ادعاء الربوبية كما وصف الله بذلك الأحبار والرهبان الذين أحلوا ماحرم الله ، وحرّموا ماأحله (٣) .

واجتهادات الصحابة – والفقهاء من بعدهم – لاتعدو أن تكون اجتهاداً محكوماً بالنصوص الشرعية ، وهو اجتهاد غير معصوم ؛ بل إنه محتمل للصواب على قدر مايتحقق له وفيه من شروط الاجتهاد وضوابطه ، وهو

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، طبع دار الأرقم ط ١٩٧٨/٢ جـ ٥٧/٢ .

(٢) انظر : ابن تيمية : الفتاوي : ٢١٠/٢٠ ، ٢١١ ، وابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين طبعة الشيخ محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ط ١٩٧٧/٢ جـ ٢٦٦/٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ومابعدها .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٧٧/٤ .

محتمل للخطأ ، بقدر مايتخلف من ذلك ، ومقصد الاجتهاد الصحيح هو بيان الحكم الشرعي المتضمَّن في النصوص أو توسيع نطاق هذه النصوص بحيث يندرج تحتها وقائع جديدة بسبب مشابهة هذه الوقائع لوقائع أخرى دلت النصوص عليها ، وليس في الأمر تدارك لنقص أو اختراع لحكم ، كما قد يُتَصوَّر – خطأً – في بعض الأحيان .

ولعل مناقشة آراء جولد زيهر قد طالت بعض الطول ، ولكن ذلك كان أمراً تستدعيه مكانته بين المستشرقين ، وخطورة النتائج التي تؤدي إليها تلك الآراء كما أسلفنا القول .

خاتمة

أشرنا – فيما سبق – إلى ماقام به المستشرقون من جهود كثيرة تتعلق باللغة العربية وأدبها وتاريخها ، وماقدموه من دراسات تتناول الإسلام من جوانبه المختلفة : في العقيدة والشريعة والتاريخ والحضارة والفكر والنظريات والأعلام . وقد ظهرت هذه الجهود في صور متعددة ، على شكل تحقيق للمخطوطات ، مع مقدمات علمية لها في كثير من الأحيان ، وفي صورة بحوث تضمنتها مؤتمرات عديدة ، أسفرت عن كتب كثيرة وجهود متكاملة ظهرت في دوائر المعارف ، والقواميس اللغوية وغيرها.ولهم – فيما كتبوه وأخرجوه – وجهات نظر ، تختلف – في كثير منها – عما يمكن أن يكون لأصحاب هذا التراث العربي الإسلامي ؛ بل إن الاختلاف قد يصل إلى حد التناقض في بعض الأحيان ، بسبب اختلاف زاوية الرؤية ، ومناهج التفسير ، إن لم نتحدث عن اختلاف المصالح والبواعث والنيات .

ولابد من الاعتراف بأن آراءهم ذات تأثير ملموس في فكرنا لأسباب عديدة ، منها تكامل الجهود ، وامتلاك أدوات التأثير ، ومكانة الحضارة الغربية في العالم في دورته الحضارية المعاصرة ، ويساعد على ذلك – من جهة أخرى – ضعف أمكانات الباحثين في الشرق الإسلامي ، وتفرق جهودهم ، وضعف المكانة التي تحتلها بلادهم ، في عالم الفكر والسياسة ، وعجزهم – نتيجة لذلك كله – عن أن يكون لهم دور ملموس في عالم اليوم ، بل عجزهم – في كثير من الأحيان – عن أن يقوموا بدراسة تراثهم نفسه ، واكتفاؤهم بترديد المقولات والنظريات التي يتم اختراعها على الجانب الآخر

من البحر ، ثم يتم الترويج لها بكل إمكانات الدعاية المتاحة .

ويمكن القول بأن هذا التأثر يعد أمراً طبيعياً ، في ظل هذه الظروف التي يعيشها الشرق ، وهي ظروف تخلف مادي يجعل هذا الشرق محتاجاً إلى الغرب لتوفير حاجاته الأساسي ، في الغذاء ، والدواء ، والسلاح ، بل وأدوات الرفاهية ، ثم هي ظروف تخلف ثقافي وعلمي تكنولوجي ، تجعل موجات التأثير ذات اتجاه واحد ، فالكأس الممتلئة تصب في الكأس الفارغة ، على حسب قانون الأواني المستطرقة ، ولم يتمكن الشرق - بعد - من أن يؤسس لنفسه قاعدة علمية يمكنه الاعتماد عليها ، بل إنه لم يتمكن - بعد - من استخلاص حقائق تاريخه ، وتحديد مقومات شخصيته ، والاتفاق على الصورة المثلى لعلاقته بمنجزات الآخرين .

والمشكلة - إذن - مشكلة حضارية شاملة لاتكفي في مواجهتها كلمات عابرة ، بل إنها تحتاج إلى عمل يتلاءم مع حجم هذه المشكلة وضخامتها .

وفيما يتعلق بالاستشراق يمكن القول بأنه سيظل ضرورة مادام الإسهام الخاص بالشرق الإسلامي غائباً > أو غير كافٍ ، ومادام في موقع الانفعال وترديد الأصداء ، بدلاً من الأصالة والإبداع والتأثير .

ولابد - على كل حال - من القيام بجهد علمي لايقل تكاملاً ولااستمراراً عما لدى المستشرقين ، وهو جهد لايستطيع الباحثون - فرادى - أن يقوموا به ؛ بل لابد فيه من العمل الجماعي المنظم ، الذي تشرف عليه ، وتخطط له ، وتنفق عليه مؤسساتٌ كبرى كالجامعات والمؤسسات الثقافية وماأكثرها عدداً في العالم العربي الإسلامي ! ومثل المنظمات الثقافية التابعة

للمؤتمر الإسلامي ، والجامعة العربية ، وينبغي أن تتجه هذه الجهود المتكاملة إلى إنجاز دوائر المعارف الكبرى ، ودراسة التاريخ والشخصيات والمذاهب والعلوم والحضارة الإسلامية ، وماكان لها من أثر في الحضارة العالمية ، ثم لايصح أن يستحوذ الماضي على كل هذه الجهود ؛ بل لابد من الاتجاه إلى المستقبل ، والتزود له بمعطيات العصر ، تمهيداً للاسهام الإيجابي فيها .

ومعنى ذلك أننا محتاجون إلى نهضة علمية وفكرية شاملة ؛ لأنه لايمكن الاستقلال في مجال الفكر ، ونحن نعتمد على الآخرين في كثير من متطلبات حياتنا ، وهذا هو التحدي الذي لابد من مواجهته ، إثباتاً للوجود ، وحرصاً على المستقبل في عالم لايحترم الضعفاء ولا المتخلفين ، ولن يُغيِّر الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والحمد لله أولاً وآخراً ، ، ،

ثبت بأهم المصادر والمراجع *

أولاً : في اللغة العربية وماترجم إليها :

الآمدي (سيف الدين على بن محمد) :
الاحكام في أصول الأحكام . تحقيق الشيخ عبد الرزاق عفيفي طبع بالمكتب الإسلامي ، بيروت . ط ١٤٠٢/٢ هـ .

الإمام أحمد (بن حنبل) :
السند ، طبع المكتب الإسلامي ، بيروت . ط ١٩٨٣/٤ . (بهامشه كنز العمال . للمتقى الهندي) .

أسد (محمد) :
الإسلام على مفترق الطرق . ترجمة د/ عمر فروخ . دار العلم للملايين . بيروت ط ١٩٧٧/٩ .

بارت (رودي) :
الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية . ترجمة د/ مصطفى ماهر . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٧ .

البخاري (الإمام محمد بن اسماعيل) :
صحيح البخاري بحاشية السندي . طبع عيسى الحلبي ، دار إحياء الكتب العربية .

بدوي (د/ عبد الرحمن) :
التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، دار النهضة العربية ط ١٩٦٥/٣.

* لم يلاحَظ في الترتيب لفظ ابن وأبو وأداة التعريف .

بوكاى (موريس) :
القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم . طبع دار المعارف . مصر ١٩٧٩ .

ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم) :
الفتاوي . جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد . الجزء العشرون . طبع الرياض ١٣٩٨ هـ

جب (هاملتون) :
علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي . ترجمة عادل عوا . طبع عويدات . بيروت ، باريس ط ١/١٩٧٧ .

جولد تسيهر (اجناس) :
العقيدة والشريعة في الإسلام . ترجمة د/ محمد يوسف موسى ، د/ على حسن عبد القادر ، عبد العزيز عبد الحق . نشر دار الكتب الحديثة ، مصر ، مكتبة المثنى ببغداد ط ٢ دون تاريخ .

ابن حزم (أبو محمد على) :
الفصل في الملل والأهواء والنحل (بهامشه الملل والنحل للشهرستاني) المطبعة الأدبية - مصر . ط ١/١٣١٧ هـ .

حسين (د/ محمد محمد) :
الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . الجزء الثاني . طبع مكتبة الآداب ط ١/١٩٥٦ .

دراز (د/ محمد عبد الله) :
- مدخل إلى القرآن الكريم . ترجمة محمد عبد العظيم على ، تقديم د/ السيد بدوي . طبع دار القلم . الكويت ط ٣/١٩٨١ .
- النبأ العظيم . نظرات جديدة في القرآن . مصر ١٩٥٧ . دون بيانات أخرى .

الذهبي (د/ محمد حسين) :

التفسير والمفسرون . الجزء الثاني . مكتبة وهبة ط ١٩٨٥/٣ .

الرازي (فخر الدين محمد بن عمر ، الخطيب) :

تفسير الرازي . المجلد الرابع . المطبعة المصرية ببولاق ١٢٨٩ هـ .

الريِّس (د/ محمد ضياء الدين) :

الإسلام والخلافة في العصر الحديث . دار التراث . مصر ط ١٩٧٧/٢ .

زقزوق (د/ محمود حمدي) :

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري . كتاب الأمة طبع قطر . ط ١٤٠٤/١ هـ .

السامرائي (د/ قاسم) :

الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية . دار الرفاعي . الرياض ط ١٩٨٣/١.

السباعي (د/ مصطفى) :

السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي . المكتب الإسلامي ط ١٩٧٨/٢ .

ستوداَرد (لوثروب) :

حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عادل نويهض . تعليقات الأمير شكيب أرسلان . دار الفكر . بيروت ط ١٩٧٣/٤ .

سعيد (ادوارد) :

الاستشراق : المعرفة ، السلطة ، الإنشاء . ترجمة كمال أبو ديب . طبع مؤسسة الأبحاث العربية . بيروت ط ١٩٨١/١ .

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) :

الإتقان في علوم القرآن . الجزء الثالث . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .

الشاطبي (أبو اسحاق إبراهيم بن موسى) :
الموافقات في أصول الشريعة . تحقيق الشيخ عبد الله دراز . المكتبة التجارية الكبرى . دون تاريخ .

شاكر (الأستاذ محمود) :
رسالة في الطريق إلى ثقافتنا . دار الهلال ١٩٨٧ .

الشوكاني (محمد بن على) :
إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول . دار المعرفة لبنان . دون تاريخ .

الصالح (د/ صبحى) :
مباحث في علوم القرآن . دار العلم للملايين . لبنان ط ١٠/١٩٧٧ .

العامري (أبو الحسن) :
الإعلام بمناقب الإسلام . تحقيق د/ أحمد عبد الحميد غراب . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر . القاهرة . ط ١/١٩٦٧ .

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف) :
جامع بيان العلم وفضله . طبع دار الأرقم ط ٢/١٩٧٨ .

عبد الجبار (بن أحمد – القاضي) :
شرح الأصول الخمسة . تحقيق د/ عبد الكريم العثمان . مكتبة وهبة ط ١/١٩٧٥.

عبد الحميد (د/ عرفان) :
المستشرقون والإسلام . المكتب الإسلامي ط ٣/١٩٨٣ .

عبد الرازق (الأستاذ الشيخ مصطفى) :
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٣/١٩٦٦.

العقيقي (نجيب) :
المستشرقون : دار المعارف ط ١٩٨١/٤ .

غراب (د/ أحمد عبد الحميد) :
رؤية إسلامية للاستشراق . دار الأصالة - الرياض ط ١٤٠٨/١ هـ = ١٩٨٨ م .

الغزالي (أبو حامد) :
المنقذ من الضلال تحقيق د/ عبد الحليم محمود مع مقدمته له عن أبحاث في التصوف ، ودراسات عن الإمام الغزالي . دار الكتب الحديثة . ط ١٩٧٢/٧ .

ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر) :
إعلام الموقعين عن رب العالمين . طبعة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر . بيروت ط ١٩٧٧/٢ .

كارلايل (توماس) :
الأبطال . ترجمة محمد السباعي . دار الهلال . ١٩٧٨ .

ابن كثير (عماد الدين اسماعيل) :
تفسير القرآن العظيم . تحقيق د/ محمد إبراهيم البنا ، عبد العزيز غنيم ، محمد أحمد عاشور . طبعة الشعب .

لاندو (روم) :
الإسلام والعرب . ترجمة د/ عمر فروخ . دار العلم للملايين . ط ١٩٨٣/٣.

مدكور (د/ إبراهيم بيومي) :
في الفلسفة الإسلامية : منهج وتطبيقه . الجزء الأول . طبع دار المعارف ط ١٩٦٨/٢ .

مسلم (بن الحجاج بن مسلم) :
صحيح مسلم . بشرح النووي . نشرة عبد الله أبو زينة . طبعة الشعب .

الميداني (عبد الرحمن حسن حبنكة) :
أجنحة المكر الثلاثة . طبع دار القلم . دمشق ط ١٩٨٥/٤ .

الندوي (أبو الحسن) :
الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين . مؤسسة الرسالة . بيروت ط ١٩٨٣/٢ .

النيسابوري (أبو الحسن على بن أحمد) :
أسباب النزول ، بهامشه الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة . دار المعرفة . بيروت . دون تاريخ .

هيرولد (ج . كرستوفر) :
بونابرت في مصر . ترجمة فؤاد اندراوس ، مراجعة د/ محمد أنيس . دار الكاتب العربي للطابعة والنشر ١٩٦٧ .

ثانياً : مقالات وبحوث :

تالبوت (رايس) :
فارس وبيزنطة . ترجمة د/ محمد كفافي . نشر ضمن كتاب : تراث فارس باشراف أربري . طبع دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩ .

الجبوري (د/ يحيي) :
المستشرقون والشعر الجاهلي . نشر بمجلة « الاستشراق » العدد الأول ١٩٨٧ . العراق .

رودنسون (مكسيم) :
الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية ، نشر ضمن الجزء الأول من كتاب تراث الإسلام ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ط ١٩٨٨/٢ .

السامرائي (د/ نعمان) :
كتاب الاستشراق لادوارد سعيد ، مقال منشور بمجلة عالم الكتب . نشر دار ثقيف للنشر والتأليف . الرياض . المجلد الخامس . العدد الأول ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

سوذرن (ريتشارد) :
الفصل الثاني من كتابه ، صورة الإسلام في أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة د/ رضوان السيد ، منشور بمجلة الفكر العربي . بيروت ، السنة الخامسة ، عدد ٣٢ - ١٩٨٣ .

شاخت (يوسف) :
ثلاث محاضرات في تاريخ الفقه الإسلامي ، نشر ضمن : المنتقى من دراسات المستشرقين ، جمع ونقل وتعليق د/ صلاح الدين المنجد . الجزء الأول . دار الكتاب الجديد . لبنان ط ١٩٧٦/٢ .

الشامي (د/ على) :
الحركة الصليبية وأثرها في الاستشراق الغربي . مجلة الفكر العربي ، بيروت ، السنة الخامسة عدد ٣١ - ١٩٨٣ .

طا شكندي (عباس) :
الاستشراق ودوره في توثيق وتحقيق التراث . نشر بمجلة عالم الكتب - الرياض . (سبقت الإشارة إليها) .

الطيباوي (د/ عبد اللطيف) :
المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية . ترجمة د/ محمد فتحي عثمان . نُشِرَ ملحقاً بكتاب

د/ محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالستعمار الغربي . مكتبة وهبة ط٨/١٩٧٥ .

عبد الملك (د/ أنور) :

الاستشراق في أزمة . ترجمة د/ حسن قبيسي ، نشر بمجلة الفكر العربي عدد ٣١ (سبقت الإشارة إليه) .

فرسوني (فؤاد) :

بين الدراسات الإقليمية والدراسات الاستشراقية . عالم الكتب الرياض . (سبقت الإشارة إليها) .

فوك (يوهان) :

رايسكه : مقال نشر ضمن الجزء الأول من : المستشرقون الألمان . جمع وتقديم ومشاركة د/ صلاح الدين المنجد . دار الكتاب الجديد . بيروت ط ١/١٩٧٨ .

نقرة (د/ التهامي) :

القرآن والمستشرقون . نشر ضمن الجزء الأول من مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية . مكتب التربية العربي لدول الخليج . الرياض - ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

ثالثاً : مراجع أخرى

1 - Graef, Hilda : Histoire de la mystique . Traduit de l'anglais par Guy maximelien et Edith Marguerite . Édition du Seuil . Paris 1972 .

2 - Jean des Graviers : Le Droit Canonique . P.U.F. 2 ème édition . Paris 1967 .

المحتوى

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٩٩٠ / ٤٢١٨

الترقيم الدولى 6-001-222-977